جورج سالم

فقراء الناس



قصصٌ

ظرفاء الناس

جورج سالم

اسماعيل العرفي

فقراء الناس

قصص

ملتزم الطبع والنشر
[illegible]

المحتوى

النظرة الاخيرة

أبو عبدو البغل

منذ فترة طويلة ، وأنا واقف هنا ، في ملتقى الطرق ، والسيارات تمر مسرعة الواحدة تلو الاخرى . . لقد أشعلت عـدة لفائف ، وانتهت كلها بسرعة ، آه ، ربما كان ذلك بسبب الريح الشديدة .. انني أحاول أن أتجنب الريح فأمشي على الرصيف ، ولكنني لاأبرحـه ، طبعاً فالسيارة ستمر حتماً قريب ...

ماهذا الشعور الذي ينتابني ؟ فما أحسست بمثله من قبل ؟ أهو الحزن ؟

لاشك في أنه الحزن ، فأنا حزين ، وإن كل الناس مروا أو سيمرون مثلي ، بتجربة كهذه . ذلك بأن الانسان لايستطيع أن يُعمر إلى الأبد .. هنالك كائن واحد يتمتع بهذه الميزة فهو لايموت ، ولكننا نحن البشر ينتظرنا هذا المصير .. إذن فهذا مايسميه الناس حزناً . إنه شعور مضطرب ضيق يأخذ بخناق المرء ، ويُفقد كثيراً من حركاته معناها العميق .. وهدوء غريب ، الضجيجُ خير منه . لا ، لم أشعر بمثل هذا قبل الآن . صحيح أن والدي توفي ذات يوم ، ولكن ذلك حدث منذ زمن بعيد بعيد ، كنت إذ ذاك طفلاً صغيراً ، فلم أفقه معنى ما كان يجري حولي .. فلا مجال للموازنة بين ما أشعر به الآن وبين ماشعرت به آنئذ .

ولكن لماذا يلح عليّ شعور آخر هو أشبه مايكون بالندم الذي نشعر به بعد إذ نرتكب إثماً ؟ أمن إثم أن تموت والدتي ؟ ان كل الوالدات سيمتن ذات يوم ، شئنا أم أبينا . لا ، لست نادماً ولا أظن أن من تموت والدته يشعر بالندم ! أأنا الذي دعوت الموت إليها، وكيف أفعل ذلك وأنا أحبها من أعماق قلبي .. نعم انني أحبها وإن كانت زوجي لاتحبها . ماعلاقة مشاعري بمشاعر زوجي .. إن المشاعر والعواطف كالموت ، لايستطيع الإنسان أن يموت عن سواه ، ولا أن يتصرف بمشاعر غيره . المهم إنني احبها . فلماذا أندم الآن ؟

لا ، ليس ذلك بصحيح لقد قال الذين زاروها أنها كانت في حال حسنة .. ثم انني مستخدم فقير .. لايكاد راتبي يسد رمقي ، أي بأس في أن التجيء الى الحكومة لتشاركني تحمل عبء مرضها وأدويتها . الانسانية ، وكل أعمال الحكومة أعمال انسانية . وإلا فلماذا عساها وجدت . لا ، أن ضميري

مستريح من هذه الناحية .. من الجائز الا يكون أحد قد اهتدى الى مثل تصرفي ، ولكن هذا التصرف نفسه ألا يدل على ذكائي .. أو على ذكائي وذكاء زوجي معاً ؟!

– صباح الخير ، معلم نعوم .

– صباح الخيرات .

– أراك هنا ، أليس في نيتك أن تمضي الى العمل ؟

– سأمضي بعد قليل .

– هل تنتظر شيئاً ؟

– لا والله .

... هؤلاء الناس الذين يحشرون أنفسهم في شئون غيرهم .. ويحرجونهم بأسئلتهم .. لقد صرفته بالحسنى ، انني انتظر شيئاً ؛ ان مايبرر هذه الكذبة زهدي في مناقشة الناس ، وضجري من سؤالهم الطويل .. نعم لقد أحسنت إذ لم اقل له أن امي قد ماتت .. وانني انتظرها هنا ، منذ فترة طويلة .

لقد تأخر ابني في المجيء . ألعله لم يع ماقلته له .. ولكن لا ، لابد له أن يمر من هنا حتماً ، فليس للمقبرة سوى هذه الطريق ..

قلت له :

– « إنني انتظرك عند رأس الشارع أمام المقهى .. »

وهاءنذا أنتظر .. ألم يكن باستطاعتي أن أذهب معه وأتظاهر بأنني غريب .. انها مغامرة لم أستطع أن أقوم بها ، لنفرض أن أحداً من الأطباء أو الممرضات في المستشفى عرفني ، فماذا عساني أن أفعل أو أقول .. لا

والأفضل أن انتظر هنا . وحينما تمر السيارة حاملة تابوت امي ، سأركب الى جانب ابني واشيعها الى مقرها الأخير . مسكينة ، لقد عاشت حياة كلها عمل وتعب .. ولم أرها تتبرم قط .. انني احبها أعمق الحب. صحيح أني وضعتها في المستشفى منذ اسبوع ولكن هذا لا يعني انني لم اعتن بها من قبل .. لقد اضطررت الى ذلك اضطراراً ، فبيتنا ضيق ، وصراخها كان يزعج الجيران كثيراً .. وكان يزعج زوجي بعض الأحيان .. وأي ضير في ذهابها الى المستشفى .. ولماذا أوجدت الحكومة مستشفاها .. ألم تؤسسه لخدمة المرضى من الناس ! ثم انني حملتها بنفسي وعلى كتفي ، وأنزلتها السلالم ببطء وحيطة عظيمين ، وكنت أحملها كما يحمل الانسان كنزاً ثميناً ، حقاً إنها كنز .. ولكن زوجي التي تبرمت بها في المدة الأخيرة .. ماذا أستطيع أن أقول ؟ .. إن الكنة لا تحب حماتها منذ الأزل ...

لا تزال السيارات تمر وأنا أترقب مجيء السيارة التي ستقلني الى المقبرة برفقة أمي .. لكم آمل ألا تكون ناقمة علي ... ولكن ليس من عادة الأم أن تنقم على ابنها مهما يكن من شيء .. وأنا لم آت شيئاً غريباً . لقد أرسلتها الى المستشفى عوضاً عن أبقيها في البيت .. صحيح أن هذا المستشفى لا يقبل إلا المرضى الذين لا أولاد لهم أو معيل .. ولكن أي بأس في هذا . لقد استطعت أن أتدبر الأمر بحيطة وحنكة .. فمختار الحي صديقي .. لا ، أنا لم أرشه ليوقع المعاملة ، وييسر لها طريق الانتهاء . كان المبلغ عبارة عن هدية لابنه .. جميع الناس يحبون الهدايا ، ثم ماذا خسر المختار ، لا شيء .. كل ما فعله انه قرر ووقع على أن هذه المرأة لا أولاد لها !

لماذا تواريت أمام رجال المستشفى الذين وقفوا في مدخل الحي ليأخذوها؟

لا لشيء ، الحقيقة أني لم أشأ أن تلتقي عيناي بعيونهم .. أي بأس في هذا ؟..

هل يعني ذلك اني لا أحبها ؟ أبداً .. ثم اني سألتها رأيها فقالت :

– كما تشاء يابني !

أليس في هذا القول دليل على رغبتها في الذهاب الى المستشفى . ان الراحة متوفرة فيه ..والعناية حسنة ، بل هي هناك أحسن منها في منزلنا ، ولولا ذلك لما كنت أرسلتها إليه .

لا ، لا أظن أنهم سألوها هل لك ولد.. لقد صدقوا شهادة المختار وكفى . انني لم أحملها على الكذب .. ربما كانت في غيبوبة فلم تفهم السؤال وهزت رأسها كيفما اتفق .

انني راض عن كل مافعلت . ولم يبق في نفسي إلا شيء واحد . . لم أرها منذ ذلك الحين . ولم أرها للمرة الأخيرة قبل ان تفارق الحياة. هل صحيح أنها نادتني طويلاً البارحة قبل أن تسلم الروح ؟ . . كان ينبغي أن اراها . . أن أمسك يدها ، أن اقبلها وأطلب رضاها . . نعم كان ينبغي . .

آه ! هذه هي السيارة أخيراً ، وهذا هو التابوت مربوطاً على ظهرها .

– لقد تأخرت يارئيف ؟

– المستشفى !

وماذا في المستشفى ؟

– لقد اخروها هناك .

– لماذا ؟

ـ ظهر لي انه ليس من عادتهم أن يسلموا الموتى الى أحد .

ـ وكيف فعلت ؟

ـ فعلت المستحيل رأيت أحد الشبان الذين اعرفهم ، وهو الآن طبيب متمرن في المستشفى .

ـ وأخيراً ؟

ـ واخيراً حصلت عليها بعد جهد كبير ،ولكنهم لم يقبلوا أن تدفن قبل أن يشرحها الأطباء .

ـ إذن فقد شرحوا جثتها ؟

ـ نعم كما يشرحون جثث كل القتلى أو الذين لا أهل لهم .. ولم يبق منها عضلة واحدة لم تمسها مشارطهم .. ان منظرها أصبح مخيفاً .

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

ـ نعم لقد كاد يغمى علي حين رأيتها .

ـ كان بودي أن اكشف غطاء التابوت وانظر إليها نظرة أخيرة .. ولكنني اخاف الآن أن أنظر إليها .. انني أخاف نظراتها !!

فقراء الناس

– هيا نلعب !

كانت الشمس قد أخذت تنسحب ببطء ، ولكن النهار كان ساطعاً ؛ فألقى شرذمة من الطلاب حقائبهم الصغيرة الى حائط المقبرة ، فألقوا عنهم عناء العلم والعمل . كان هذا دأبهم مساء كل يوم. بعد اذ تصرم الشتاء وأقبلت اسراب السنونو معلنة قدوم فصل الربيع ، فكانوا ينتشرون فى الأزقة

والطرقات متلكئين، متباطئين، مستريحين الى امتداد النهار لكي يتأخروا في العودة الى منازلهم .

كانت الجماعة التي أسير وراءها تتكون من فتيان جاوزوا العاشرة أو الحادية عشرة من سنيهم ، وكنت أنا اصغرهم سناً اذ لم أكن قد بلغت عامي العاشر بعد . كان هؤلاء الفتيان يحبون اللهو حباً جماً . ولقد اختاروا المقبرة الكبيرة مسرحاً للعبهم وتعابثهم . ذلك بأن حجارة القبور مخابيء ممتازة للعبة التخبئة ، كما انها تصلح للتسابق والقفز من فوقها .

كنت أقضي جل الوقت متفرجاً على رفاقي ، فأنا لا أحب اللعب كثيراً ، وأخاف بعض الخوف من الموتى الذين يرقدون تحت الصفاح البيض ، ولكن رفاقي لم يكن ليصعب عليهم أن يحملوني على مشاركتهم لعبهم ، والجري معهم كما حملوني من قبل على مرافقتهم الى المقبرة .

وكان آخر ماوقعوا عليه سلماً خشبياً كبيراً ، حملوه جميعاً بشق النفس ، حتى انتهوا به بعد لأي ، الى آخر المقبرة ، فوضعوه فوق قبر كبير ، وانقسموا فريقين . ركب كل قسم منهم أحد طرفيه ، وراح السلم يعلو بهم ويهبط . أما أنا فقد أعجبتني اللعبة ، وما أن تزحزح السلم عن مكانه وتوقفوا ليعيدوه الى ماكان عليه ، حتى تعلقت به ، وصرت في عداد الصاعدين الهابطين المنتشين بهذه اللعبة الفذة !

ولكن مالبثنا ان مللنا ، وأدركنا الاعياء ، فتباطأت الحركة ، ثم هدأت أخيراً ، فتركنا السلم ورحنا ننفض ماعلق بنا من غبار ، وآنئذٍ لمحنا على باب المقبرة الصغيرة مجموعة من الناس يتقدمهم فتى صغير يحمل صليباً خشبياً ومن

ورائه كاهن قصير القامة ، ذو لحية بيضاء ، وظهر مقوس ، وكان رجال أربعة يحملون نعشاً كالح اللون قميء الشكل ، ومشى وراء النعش خمسة رجال محمرة عيونهم ، فما أسرع مامضينا نحوهم ونحن نحث الخطا .

إلا أنهم اتجهوا نحو غرب المقبرة فتبعناهم ؛ كان ضـــوء النهار قد أخذ يتلاشى ، فاقترب الجميع مـن حفرة كبيرة ، ومر نسيم المساء فحمل الى وجوهنا بعض ذرات من كومة ترابية كانت تربض بالقرب من الحفرة ، فما كان منا إلا أن حولنا وجوهنا ، خشية أن تلج عيوننا

ولمّا اوفوا على الحفرة ، وضعوا النعش على الارض ، فوقف الكاهن يتمتم بكلمات لم أفهم منها شيئاً ، ثم التفت الى يمينه فرآنا بالقرب منه واقفين نـظر ، وحب الاستطلاع يرتسم على تقاطيع وجوهنا . فتنحنح قليلاً ، فالتفت حاملو النعش إليه وفهموا ماأراد .

صرخ في وجوهنا رجل منهم أسود الوجه أشعث الشعر ، كبير اليدين :

— ابتعدوا !

ففزعنا من هذا الانسان المخيف ، وخشينا أن تكون له قرابـة بالموت الذي نسمع به ولا نراه . ووقف الرجال الاربعة بثيابهم القاتمـــة كالجدار أمامنا . الا أننا ماابتعدنا الا لنعود ، ونحن أشد مانكون رغبة في معرفـة ماسيجري . ان هنالك سراً يحاول الكاهن أن يصرفنا عنه . أهو سر الحياة والموت ؟ فاقتربنا متمهلين ، وجلين ، نمس الارض ببطء وحـذر شديدين . وكأنما عرف الرجل مرادنا ، فالتفت الينا قبـــل ان نقترب منه وصرخ مرة اخرى :

- قلت لكم ابتعدوا !

كان في عينيه شرر ، وفي وجهه انقباض مخيف ، انحنى الرجال على التابوت فظهرت بينهم فجوات ، ومضى كل منهم الى ناحية فوقفنا عن كثب نرقب مايجري . لقد كشفوا الغطاء ببطء ، ووضعوه جانباً ، فظهرت كتلة بيضاء ، وتقوس الرجال الاربعة فحملوا الجسم المسجى في التابوت ، والملفوف بالغطاء الابيض ، وامروا حبلاً من حوله .

صرخ أحد رفاقنا وقد عقد الخوف لسانه وألبابنا جميعاً :

- إنها فتاة !

ولكننا تسمرنا في مكاننا ، فلم نكن لنتركه . وقال ثان وأسنانه تصطك :

- اني لارى شعرها الاشقر .

وطمست أنا رأسي مصدقاً كل ماقيل ، دون ماحاجة الى أن أتحقق من ذلك بنفسي .

وانزلوا الجثمان الى الحفرة ، وأمسك الكاهن بقبضة من التراب ، فرمى بها فوق القبر بحركة آلية . كانت أنفاسنا معلقة ، وأعصابنا متوترة . وأهال الحفار التراب برفشه على الميت ، ومضى القوم في مشية رزينة . وحمل اثنان من الحمالين التابوت الفارغ وعادوا به من حيث أتوا ، فهرولنا مسرعين ، وخطفنا حقائبنا ، وانطلقنا أثر القوم . اننا نريد ان نفهم وان نعرف ، ولم نفقه شيئاً مما جرى حولنا .

- لماذا ؟

لماذا تركوا الميتة بدون تابوت ؟

ــ الى أين مضوا بالتابوت ؟

وسألت أنا :

ــ لماذا لم نر موسيقيين يتقدمون النعش ، والميتة شابة ؟

ــ لـماذا ؟

وارفض الجمع . فتبعنا الشماس بخطا حثيثة ملحاحة .

ــ لماذا ياعم نعوم ؟

ــ دعوني .. الله يرحمنا .

وألحفنا في السؤال ، والشماس يحاول أن يدفعنا بكل ماأوتي من قوة . ولكنه يئس منا آخر الامر وقد تعلقنا به أي تعلق . فالتفت نحونا وقعد بانت على وجهه ضوء ولكنه حنو قاس لكثرة مارأى وسمع وقال :

ــ هؤلاء قوم مساكين .

ــ نعم ، ولكن لماذا فعلتم هذا ؟

ــ الله يرحمنا . انهــم لايملكون ثمن تابوت ، ولذا فالأوقاف تعيرهم هذا التابوت .

ــ فقراء .. مساكين .

وحث خطاه ..

عدت الى البيت متأخراً في ذلك اليوم، كان الظلام قد خيم في كل مكان، فانتبذت ركناً من أركان الغرفة واخرجت كتابي ورحت أقرأ ... ولكن سرعان ماكنت أبتعد عن الكتاب لاعود الى حيث كنت .. وتمر المشاهد مسرعة بالقرب من ناظري .. بين خروجي من المدرسة وعودتي الى البيت

رأيت عالماً واسعاً واسعاً ، هو أوسع من الزمن الذي حدث فيه .

واقتربت مني أمي :

ــ قم فقد هيأت لك العشاء .

ــ لا أريد أن آكل .

وعدت الى الكتاب .. ولكن عبثاً كنت احاول أن أدرس .

ــ أمي ، سأسألك شيئاً ..

ــ ماأكثر أسئلتك ؛ قل ، ماذا تريد ؟

ــ أماه ، هل نحن فقراء ؟

ــ فقراء جداً ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟

فلم أجب ، وأجهشت بالبكاء !!

الحب البائس

كانا يجلسان منفردين في ركن ما من أركان بهو النادي . وكان باب الردهة الكبير يفتح بين الحين والحين ، لتدخل منــه عطور تضوع من ثياب النساء وشعورهن ، وبريق يتألق من حليهن ؟ ويخطو الرجال وراءهن بوقار وثبات وقد بدت شعورهم تلتمع في الضوء الباهر المنعكس عليها .

ليس يدري لماذا اختار هذه الطاولة البعيدة عن الناس ، لعله كان يخشى

الناس ، بل ربما كان ذلك لأن هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها أقدامه عالماً جديداً عليه ، غريباً عنه لم يألفه فيما مضى ، ولم يلجه من ذي قبل . ولقد ألح عليه صديقه في دخول العالم البهيج حيث الموائد عامــــرة ، والكؤوس مترعة ، وانغام الجاز تدوي ببحة غريبة صاخبة . قال له رفيقه :

ـ لن نجد غير هذا المكان مجالاً تتعرف فيه على « سوسن » ، وأنا قمين بنقلك الى هذا الجو !

كان قد قطع قسماً من حياته ينتقل من كتاب الى كتاب ، ومن شهادة الى اخرى ، حتى نال أسمى ماتمنحه الجامعة من شهادات وتفوق فيها جميعاً.

لم يكن اللهو يعرف الى حياته سبيلا ، ذلك بأنه أخذ نفسه بالجد الصارم، وبالقيام بواجبه على أكمل وجه ، ثم عين مدرساً الأدب في مدينته بمدتخرجه من الجامعة ، فراح يدأب على حسن أداء عمله ، من تحضير الدروس وتصحيح للوظائف ، لكنه كان رغم ذلك يذكر ، كلما ألح عليه التعب ، وأضناه العمل، صورة بعيدة ، لفتاة كان تعرف عليها قبل نجاحه في البكالوريا ، إلا أن سفره الى العاصمة أبعده عنها .

قال له صديقه :

ـ لا عليك فالوصول إليها ليس بالأمر الصعب ، لاسيما وانك تتمتـع بسمعة طيبة ودخل معقول .

كان على استعداد ، لأن يعمل ليل نهار ، لـكي يحسن من وضعه المالي ، ويتغلب ، بالزواج ، وبالحياة العائلية ، على وحدتـــه الكئيبة التي لازمته منذ صباه .

ومال الى صديقه الذي كانت عيناه تتعلقان بكل جسم يفد الى النادي وتحاولان أن تلتهماه :

ـ أواثق أنت من مجيئها الى النادي هذه الليلة ؟

فابتسم صديقه وقال :

ـ كل الثقة ، ماجئت هذا النادي مرة الا ورأيتها فيه مع أهلها .

ـ أليس لها عمل يصرفها عن مثل هذا الدوام ؟

قال صديقه وهو يحد النظر في النساء :

ـ كلا .

ـ ألا تطالع بعض الكتب ؟

وتضايق صديقه من هذا السؤال يلقى في هذا المكان ، فقال ساخراً :

ـ لقد تركت المطالعة لك !

فسكت على مضض وراح ينتظر . لقد قيل له إن هذا الجو غريب كله ، وسيلاقي فيه أشياء لايفهمها ، ولا يستطيع أن يدركها . ولكنه عـــزم على التجلد ، ورغب في دخول هذا الجو ، مهما كلفه الأمر .

ـ انظر ، لقد جاءت ، أرأيتها ، تلك التي ترتدي ثوباً أزرق شفافاً !

ورنا الى الباب يحدق فيه من خلال نظارتيه الكثيفتين ؛ كان صديقه على صواب ، وتهادت الفتاة بين ذويها كأنها الفراشة ، عجباً كيف تسير هـــذه الفتاة ، أهي تطير ، أم تمشي على الأرض مشياً ؟ !

وجلست الأسرة غير بعيد عن طاولته ، يا للمصادفة ، وضحك في سره . إن الحظ يبسم له ، لاشك ؛ فهذه الفتاة التي يحبها ، على مرمى نظرة منه .

وعزفت الموسيقى ، وامتلأت الحلبـــة بجمهور الراقصين والراقصات - كان صوت الكلارينيت يلف الأقدام ويطوقها بنغمه الخشن الأبح .

قال لصديقه :

- ما أبهج هذا المنظر !

فأجابه صديقه :

- هذا أفضل من التدريس ، أليس كذلك ؟

- لاشك .

ونظر الى الطاولة ، فرأى سوسن تتصدرها ، ومن حولها جلس أبوها وأمها وأخوها كانت تنظر اليه ، فهز جليسه خفية :

- إنها تنظر الينا ، أتراها تذكرني ؟

- أعتقد أنها تذكرك جيداً .

أما هو فيذكرها ، ولقد ذكرها كثيراً . كان يذكرها كلما خلد الى نفسه ، وما اكثر ما يخلد الى نفسه . تعرف بها عند أقاربه ، وتحدث اليها ، عـــلى خجله ، وإنه ليذكر دائماً صوتها الناعم العذب .

- أليس في نيتك ان تراقصها ؟

ودهش لهذا السؤال الذي قطع عليه ذكرياته . كيف يراقصهـــا وهو لايكاد يلم بالرقص .

- وإذا رفضت أن تراقصني ؟

- لقد قلت لي أنها تعرفك بعض المعرفة ، ولست أستبعد أن تقبل بمراقصتك ، إذا كنت تروق لها. لاتتردد . هذه هي العادة المتبعة في النادي.

يبدأ الأمر في الرقص . وينتقل الى الكلام ، ومنه الى دعوة للعشاء ، ولا تلبث الأمور ان تأخذ مجراها الطبيعي .

– بهذه السهولة ؟

– بهذه السهولة ، هل تريد ان أروي لك عدداً من مثل هذه الحوادث ؟

– لا حاجة الى ذلك ، يظهر أنك خبير !

كيف لايكون صديقه خبيراً ، وهو يداوم منذ سنين على هذا النادي .

وأصلح صديقه ربطة عنقه ، وعقد ازرار سترته وقام .

– قم . سأسبقك ، فأطلب مراقصة صديقتي كاود ، ومـا عليك إلا ان تفعل كما أفعل . وامتثل لنصح صديقه .

– مساء الخير . كيف حالك يا أستاذ ؟

– الحمد لله .

– يسرني أن أعرفك على والدي ووالدتي وأخي .

– تشرفنا .

وبعد المجاملات التقليدية ، اقترب منها يقول :

– هل لك في رقصة ؟

– شكراً إنني متعبة ، شكراً جزيلاً .

انسحب إلى مكانه ببطء ، وهو يتصبب عرقاً .

أترى صديقه قد غرر به ، أم انها متعبة حقاً . يا لسوء حظه ، ليته أرجأ هذا الطلب الى وقت آخر . لقد كان مستعجلاً ، ولطالما حذرهم أساتذتهم في الجامعة من العجـلة ؛ كان يجب ان يأخذ بنصحهم ، فهم أناس

ممتازون خبروا الحياة . أما صديقه هذا .. ونظر اليه فرآه يرقص منسجما مع فتاته ، وهو يثرثر ويضحك ، وفتاته تميل عليه هامسة !

وثبت في مكانه ، لايكاد يجرؤ على الالتفات الى أية طاولة مجاورة .

ما أطول هذه الرقصة ، انه لم يشعر بطول الزمن كما يشعر به الآن - متى يعود رفيقه فينصرفان . ولكن يبدو أن رفيقه لن يعود ، فالعازفون ما أن ينتهوا من عزف مقطوعة حتى ينتقلوا الى غيرها ، انهم ليعزفون شتى الأنغام، ولكنه لم يجد نغماً واحداً يقترب من نفسه أو يعبر عما فيها من قلق عميق

وحانت منه التفاتة ، فرأى سوسن ترقص .

— عجيب !

ثم أعاد النظر ، لا ، انه لم يكن مخطئاً . فهـذه سوسن نفسها ، تراقص شاباً جميل القوام في مثل سنها ، حقا انه لماهر في الرقص . واستدارت سوسن فرأى وجه مراقصها .

— آه ، انه . . هل هذا معقول !

كان منحنياً على الطاولة فاستقام ..

— سعيد نفسه ..

يالله ، انه أحد طلابه ؛ ما الذي جاء به الى هنا ؟ وكيف يراقص . . . لم يكن يقدّر أن مثل هذا يحدث لقد كان الفتى يستمع الى دروسه منذ ساعات في مدرسة (د . .)

وشعر بالضيق يتفاقم في نفسه .

وضغط الفتى على ذراع فتاته أن انظري وراءك .

ـ انه استاذنا .

لم يشعر الفتى بأي حرج إذ التقت عيناه بعيني استاذه . كان الأمر طبيعياً بالنسبة اليه ، وحنى الفتى رأسه محيياً استاذه باحترام ، فرد عليه هـذا تحيته بمثلها

قال له في نفسه : هنيئاً لك ، فانت تضم أثمن لؤلؤة في العـالم ، وتلف شباباً وجمالاً رائعين بين ذراعيك الفتيتين ، أيها الفتي .. !!

وذكر آنئذٍ أن هذا الفتى ، من أغنى أغنيـاء المدينة ، وان أباه لا يملك مالاً أو محلاً تجارياً أو أراضي ، ولا يملك مصرفاً ، مصرفاً بكامله .. وابتسم.

كانت وفود الراقصين تتزايد شيئاً فشيئاً ، حتى ضاقت بهم الحلبة ، ولم يكن الأزواج يرقصون بل كانوا يسيرون سيراً بطيئاً ، وتطـأ الاقدام منهم الأقدام .

واقترب الراقصان الفتيان من طاولته ، وأرهف سمعه .

ـ انه استاذ طيب القلب ، مخلص .

ـ انني اعرفه ، وقد سمعت كثيراً من التلاميذ يثنون عليه .

ـ متفان جداً في عمله ، ولكن الأدب لم تعد له قيمة اليوم .

ـ فكر أبي في أن يكلفه باعطاء دروس خاصة لاختي ، فهي تعد شهادة الكفاءة .

ـ يستطيع أن يساعدها أحسن مساعدة .

ـ ولكنني لم أحب أنفه الكبير ، وعينيه الناتئتين .

وضغط على يدها وهو يضحك :

– حذار فهو مرهف السمع .

وابتسمت الفتاة ثم صمتت .

وتعب الراقصون فراحوا ينسحبون زمراً زمراً . وعاد صديقه فيمن عاد وخلت الحلبة الا من عدد قليل كان دم الشباب لايزال عنيفاً في عروقهم .

قال له صديقه :

– ماذا ؟

– الأمر أكثر تعقيداً مما تظن .

فلم يضف الصديق كلمة ، بل أكب على كأسه يرشف منها . وظل هو ينظر الى الراقصين والراقصات .

كان الفتى وفتاته لايزالان يرقصان ، فرنا الى سوسن ورآها تستدير ثم تستدير ، وتتقدم الى اليمين ، ثم تنحرف نحو اليسار ، وتعود لتستدير من جديد . وقدماها تتحركان كأنهما طليقتان من كل أسر وقيد . كانت الأنغام تصدح كأنما لتغني لقدميها الرائعتين . وتقدم الزوجان من طاولته ثم ابتعدا عنها ، وانتهيا الى الوسط ، ثم عادا سيرتها الأولى ، كان تلميذه ينظر اليه وكأنما يطلب رأيه في براعته . « ألست أجيد الرقص ياأستاذ ؟ » وهز رأسه كأنه يجيب : « بلى انك لتجيده أحسن اجادة ، كيف لا ، وقدما فتاتك تنسج أجمل الألحان ! »

– ألا تنصرف ؟

– ولكن الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة .

– لقد تأخرت وليس من عادتي أن أسهر .

ـ ستعتاد السهر .

ـ عندي عمل في المنزل .

ـ الآن ؟

ـ نعم .

ـ وماذا ستفعل ؟

ـ سأحضر درس الغد .

ـ ألن تكف عن تحضير الدروس ، واضاعة وقتك سدى .

ـ ما أكثر ما أضيع أوقاتي سدى !

وقال صديقه بلهجته الساخرة :

ـ وما يكون درس الغد ؟

وابتسم المدرس ابتسامة شاحبة ، ونظر الى صديقه الذي كان يعب الخمر عباً ، وتمتم وهو على أهبة الانصراف :

ـ ساحدثهم عن ابن المقفع ،وسأقرأ لهم من كليلة ودمنة قصة الحمار الذي قال عنه ابن آوى انه لم يكن له قلب ولا اذنان !!

على باب المدرسة

لست أستطيع أن أعبر عن هـذا الألم الذي أشعر به الآن وأنا أنظر من النافذة فأراك وقد استظهرت المدرسة ياأبو أحمد . الى أين ستتجه ، وماعسى ان يكون مصيرك ؟ وهذه المدرسة التي خلفتها وراءك ، أتراها تشعر بما يجول في صدرك ؟ أتراني وحدي الذي اشاركك شعورك ، أم أن هناك كثيراً من الناس شعروا بمأساتك الصغيرة العميقة وشاطروك أحزانك الصلبة ؟

كان أبو أحمد يسير بخطا بطيئة ،وهو يحمل بيده صرة وضع فيها أشياءه التي كانت في المدرسة .. وكان كلما سار خطوة أوخطوتين عاد فالتفت ليلقي على المدرسة نظرة طويلة ، وكأنه يريد أن يلتهمها ببصره العنيف ..

حين أراد أن يودع رفقاءه من الآذان ، جف الكلام في حلقه ، وببس لسانه ، فلم يستطع أن ينبس بحرف ، بل ضغط على يد كل منهم ، وعبّر بحركته تلك عن كل ما يجيش به صدره ، ويأباه عليه لسانه . ولكنه عجز عن تمالك نفسه حين انتهى الى الآذن الموكل بالباب الخارجي ، فانتهز فرصة انشغال هذا بمحادثة أحد الزائرين وانسلّ بسرعة .. إن حراسة الباب من كيانه .. وانه الآن ليخلف وراءه كل ماضيه ، ويمضي في طريقه الجديد، وقد تقطعت الاسباب بينه وبين كل شيء . وهاهو ذا يلتفت مودعاً متألماً ، حادجاً الباب بنظرات عريضة يائسة ..

عرفته حارساً لباب المدرسة وأنا طالب ، وحينما عدت الى مدينتي لا علم فيها ، كان أبو أحمد لايزال يربض الى جانب الباب الحديدي بوجهه القاتم الأسمر ، وشاربه الاسود الكبير وقامته الصغيرة ، وكانت عيناه الصغيرتان ملء الباب والحديقة ، ولم يكن هناك من تسول له نفسه أن يهرب ، وابو أحمد في مكانه المعروف .

– كيف ضعفت هذا العام ؟ وكيف تسلل الوهن الى عينيك ، فطار صغار الطلاب من حديقتك ؟

عبثاً نبهه المراقب الى تقاعسه واهماله واجبه ، وعبثاً أنبه المدير على تفاعله. ذلك بأنه لم يعر أحداً منهما التفاتاً ، وبقي مصراً على سلوكه . وحينما أرادوا

أن ينقلوه الى عمل آخر ، رفض وأصر أن يبقى في مكانه .

– ولكن هذا لايجوز .

– أنا أدرى الناس بما يجوز وبما لايجوز .

وهمس المراقب في اذني يقول :

– لقد خرف أبو أحمد .

لكن أبو أحمد لم يخرف لأنه كان يعي مايفعل ويؤمن به .

كان صوت ناعم ينبعث من قلبه فيقول له :

« دع هؤلاء الطلاب ، رفاقي ، يخرجون ، فانهم يريدون أن يلعبوا ، وسأراهم يلعبون ، وساشاركهم لعبهم . »

وكان هذا الصوت صوت ابنه احمد ، وأنّى له أن يخيب نداءه .

لقد أودى به الالم الى الضعف ، وأودى به الضعف الى التساهل .

– أتذكر كم مرة رويتَ لي قصتك ؟

– استاذ ، رزقني الله ولداً ممتازاً ، رزقته وأنا شيخ ، أتدري ماذا أريده أن يصبح . أريده أن يكون استاذاً .

– إن شاء الله .

– سارسله الى الجامعة ، وسابيع كل مالدي لانفق عليه ، انه زينة المدرسة ، أنت تعرفه ياأستاذ .

– نعم ، انني أعرفه معرفة تامة ؛ كان تلميذي في العام الماضي .

– سألتك بالله ، ألم يكن ذكياً ونشيطاً .

– نعم ، نعم .

– هل أستطيع أن أخيب طلب أحد من رفقائه الذين كان يدرس ويلعب معهم ، معاذ الله !

– ايه أبو أحمد . لقد أصبحت متساهلاً ، لان الضعف سيطر عليك !

★ ★ ★

حين تغيب أبو أحمد عن المدرسة ، لاول مرة منذ عشرين عاماً أدركنا جميعاً أن حدثاً جسيماً ، صرفه عن أداء واجبه ، لانه لم يتغيب عن المدرسة قط وكنا نعجب لثباته ذاك .

– أبو أحمد ، لماذا لاتتغيب . الا تمرض ؟

وكان يأتينا دائماً جوابه المعروف :

– لايجوز أن أمرض ، هبْ اني مرضت فمن يحرس الباب بعدي ؟

بيد أنه تغيب آخر الامر .

– الحمد لله على العافية .

والتفت اليّ أبو أحمد ذلك اليوم ، ومعالم القسوة مرتسمة على أخاديد وجهه ،وظهرت تلك الاخاديد،وكأن ازميل الزمن قدنفض يده منها من قريب .

– لم أكن مريضاً فتهنئني بالعافية ، والذي مرض لم تكتب له العافية .

فهمت قصده ، ولكنني خشيت أن أكون مخطئاً ، أو انني اردت أن أكون مخطئاً . فسألته :

– ماذا تقصد ؟

– ارتفعت حرارته الى ٤١° درجة ثم مات بسرعة .

– من ؟ أحمد ؟

فلم يجب ، ولكنه أضاف بعد فترة :

– لقد دفناه عصر البارحة . ثم عدنا الى البيت ، فرأيت البيت فارغاً

موحشاً ، كنت التفت الى القبر كلما مشيت خطوة ، لاتزودمنه بنظرة أخيرة .

وشعرت ان كل عزاء عاجز بليد في مثل هذا الموقف ، فلِذت ولاذ الصمت.

★ ★ ★

– ابو احمد ، يرحم أحمد ، دعني اخرج .

ان هذا هو صوت أحد صغار الفتيان ، ويقطبُ ابو احمد جبينه بغضب ثم يقول :

– لا يجوز ، ممنوع .

ويكرر الفتى قولته ، فيسمح له أبو أحمد بالخروج .

ومنذ ذلك اليوم أدرك الطلاب مفتاح قلبه فما اقتصدوا في اللعب به .

– لقد كنت أحب ابنك كثيراً .

– أما أنا فقد كنت رفيقه .

– وأنا كنت أجلس الى جانبه في الصف .

– وأنا عدته يوم مرضه .

– وأنا سأتلو جزء عمّ على قبره قبل أن أمضي الى البيت .

لقد ضعف الاسد فلم يعد يستطيع أن يحمي غابته ، وهكذا انفتح باب المدرسة رويداً رويداً .

شكا المراقب أمره الى المدير ، ورأى هذا أن ينقله الى مهمة اخرى فرفض أبو أحمد ، ثم اقترح أن ينقل الى مدرسة اخرى ، فرفض أيضاً ..

★ ★ ★

لايزال أبو أحمد يسير في هذا الشارع الطويل ، وهو يلتفت بين خطوة وأخرى ، ليحدج المدرسة بنظرات أخيرة كما حدج قبر ابنه من قبل بمثل هذه النظرات، لقد كان كل شيء في المدرسة يذكره بابنه : الباحة والملعب وأشجار الحديقة والطلاب والمدرسون .حتى غدت المدرسة ابنه آخر الامر..

قرع الجرس فحملت حقيبتي وتركت النافذة ومضيت الى الدرس :

– مسكين أبو أحمد ، لقد دفن ابنه مرتين !!

موت البجعة

في نبأ عابر نشرته احدى المجلات أن راقصة الباليه (ن ...) قد توفيت في الشهر الماضي .

كنت جالساً الى مكتبي أشرب القهوة وأدخن ، على عادتي صباح كل يوم ، حين وقع نظري مصادفة ، على هذا النبأ اليسير الذي صاغه المحرر بكل موضوعية وحياد . وتريثت هنيهة أفكر . الراقصة (ن ...) ماتت .

أما كيف ماتت ، وأيان ماتت ، والظروف التي لابست موتها ، فامور لم تر الصحيفة موجباً للإشارة اليها . وإن أكن انا الذي عرفتها أياماً قليلة ، ورافقتها ساعات من عمرها ، تهمني مثل هذه التفاصيل الصغيرة . ترى كيف ماتت ؟ أعلى خشبة المسرح ، كما توقعت هي ، أم كيف ؟

وغامت الصور والخواطر في ذهني ...

عرفتها منذ سنة وبضعة شهور تقريباً . كان ذلك حين قدمت فرقة الباليه الكبرى ، لتحي بعض الحفلات في بلادنا . فانتدبت لمرافقتها في تجوالها وتطوافها بين المدن . كان من واجبي ان اؤمن للفرقة ما تحتاج اليه ، وأترجم لها اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وأعلن من وراء مكبر الصوت برنامج الحفلة ، وأسماء الفنانين والفنانات في كل حفلة تحييها الفرقة .

رافقت الفرقة اسبوعاً واسبوعاً ، فسافرت معها وصحبتها ، حتى نشأ بيني وبين الفرقة بعض المعرفة ، ومن خلال ملاحظتي تبينت أن الراقصة (ن ...) ، وهي راقصة الفرقة الاولى ، تبدو على شيء من الوحدة والكآبة ، وظلت هاتان الصفتان تلازمانها طوال إقامتها في ربوعنا ، كان هذا في النهار ، أما اذا جن الليل فقد كانت ترتدي من الأثواب والأصباغ ما يعطيها وجهاً آخر ، وشكلاً آخر ؛ فاذا هي فتاة تختلف عن الفتاة التي أعرفها وأراها كل يوم .

ثم تهيأت الفرقة لمغادرة العاصمة والانتقال الى مدينة اخرى ، فركبنا سيارة كبيرة ، وسَرَت بنا في ليلة قمراء من ليالي نيسان .

كان مقعدي بحذاء مقعدها . أكان هذا نتيجة مصادفة ام انني تعمدت ذلك وقصدته ؟ الحق انني لا استطيع ان أجزم برأي في الأمر .

ورحت أحدثها . كانت تصغي الى احـاديثي بشيء من اللامبالاة . فقد كنت أصف لها الطريق التي سنجتازها ، والقرى للتي حواليها ، والمدينـة التي نقصد ، وسكانها وعاداتهم . الا انني كنت في شوق الى اقتحـام عالمها ، عالمها الذي بدا لي كئيباً ، ولو للحظات . فقلت لها فجأة :

– أراك كئيبة جداً ؟

وابتسمت ابتسامة صغيرة ، ازداد بها وجهها شحوباً ، وبرزت عظـام وجنتيها الضامرتين وقالت :

– آه !

كان قمر شاحب يودع شهره ، يرسل في الأفق نوراً اصفر باهتـاً ، وإذ تستدير السيارة في أحد المنعطفات ، يعكس نوره ذلك على وجهها ، فيبدو كأنه يصبغ وجنتيها بصفرته الباهتة .

قلت لها بعد حين :

– أنت تحبين الرقص ، لاشك !

فغمرها شيء من الحماس وهي تقول :

– احبه أعمق الحب ، إن الرقص بالنسبة الي هو الهواء الذي استنشق والنسغ الذي أعيش منه ، انه الحياة بالنسبة الي .

ثم أضافت بعد قليل :

– ولكن بعض الناس ليسوا سعداء بالحياة ، كما ان بعض الراقصين والراقصات ليسوا سعداء بالرقص .

قلت وقد شجعني استرسالها في الكلام :

– وما الذي يشقيك منه ؟

– كل ما فيه شقاء . تعب وضنى وجهود لا تهدأ لحظة ، وتمارين مستمرة طوال الأيام ، ونظام في التغذية دقيق صارم لكي لا يزيد ثقل الواحدة منا قيراطاً فنفقد رشاقتها ، كل هذا في سبيل أي شيء ؟

قلت لها :

– في سبيل الشهرة والمجد ، تصفيق الجماهير وهتافها ، في سبيل الابداع الفني .

فصمتت لحظة طويلة ثم قالت :

– هذا صحيح ، يا صديقي ، ولكن يخيل الي في بعض ساعات الكآبة والضيق والقلق ، ان غاية فننا هي لقمة العيش . اما ماذكرته عن الشهرة والمجد والتصفيق والهتاف فلغو لا طائل تحته . أترانا اذا ما جعنا او جاعت اسرتنا نطعمها تصفيقاً وهتافاً والجمهور ؟ أتظنه يعرفنا او يحبنا ، انه يحب الخدر اللذيذ الذي نمنحه اياه ، فينسى شقاء آلامه ، ويصفق للمعاني التي يشعر بها ، ولكننا وحدنا الذين نستطيع ان نعكسها له حركات حرة على خشبة المسرح .

لم أكن لأتوقع مثل هذا الكلام من فنانة جابت العالم وحظيت بالتقدير حيث حلت . كانت تشعر بالكآبة ، وكانت الوحدة ترهقها ، وحينما أتاح لها الليل متنفساً تتكلم فيه ، ألقت الى هذا الغريب لاترتبط به الا بأوهي سبب ، ببعض ما كان يجيش في صدرها .

قلت لها بخبث :

– ومع هذا كله ، مـا يكون موقفك اذا طلب اليك أن تتركي الرقص

وتعيشي من عمل آخر ؟

فأجابت بذعر :

– كلا ، كلا ، لست استطيع ذالك ، ان الرقص بالنسبة اليّ هو الحياة كما قلت لك ، ومهما كانت الحياة متعبة شاقة ، فإن الإنسان يظل متعلقاً بها .

وصمتت هنيهة ، ثم التفتت اليّ تسألني :

– أأنت مؤمن بوجود الله ؟

قلت :

– نعم .

فقالت :

– ان إيمانكم ، معشر الشرقيين ، يخفف عنكم فراغ الحياة ، و بؤسها . أما انا فقد اضعت الايمان منذ مدة طويلة ، ولم يعد يعمر نفسي الا الفن ؛ ولكني في بعض لحظات الكآبة ، بدأت اشك في الفن نفسه .

– قد يعود الانسان الى الايمان في آخر لحظة ، اذا هو فتح له قلبه .

فهزت رأسها بعصبية وقالت :

– كلا ، لا اعتقد انني مستطيعة ذلك يوماً . اتصور احياناً شيئاً تسمونه الحياة الاخرى ، فيها الفرح والسعادة ، ولكنني لا البث ان اعود الى الواقع كما يعود من حلم بهيج ، فيجد ما حوله ثابتاً لم يتغير ، وان ما كان يراه اضغاث احلام لانفع فيها .

وشعرتُ باطراقي وحيرتي فأرادت ان تغير من سير الحديث فقالت :

– لقد شهدت الحفلات ، فما رأيك فيها ؟

قلت بحماسة :

– ممتازة جداً ورائعة ، وان كنت لم ارهـا الا من خلال الستائر وانا واقف وراء مكبر الصوت اذيع برنامج الحفلة .

قالت :

– ألم تر « موت البجعة » ؟

– رأيت ما تيسر لي ن ارى منها .

فأضافت تقول ، وفي صوتها اهتزاز الم هادىء :

– كل منا بجعة ، ولابد للبجعة من ان تموت يوماً .

فرددت في سري :

– لابد للبجعة ان تموت يوماً .

كنت اعرف انها هي التي تؤدي هذه الرقصة ، وكان خوفهـا من النهاية يحز في اعماقي ..

– اتعرف ؟ كانت هناك راقصة قبلي في الغرفة ، تقوم بهذه الرقصة .

– واين هي اليوم ؟

– لقد ماتت على خشبة المسرح . رقصت تلك الليلة كأروع مايكون الرقص ، وحين انتهت واستلقت على الأرض ، صفق لهـا الناس طويلاً ، الا انها لم تستجب لهم لأنها لم تستيقظ بعد من رقدتها . لقد سبقت هذه الراقصة راقصات كثيرات ، وكان مصيرهن كمصيرها ، وهاءنذا احل محلها منذ اكثر من خمس سنوات وسينتهي بي الأمر الى ان تحل غيري محلي . لن يستطيع الانسان ابداً ، أبداً ، ان يثبت في الارض الاشياء الجميلة ..

ورأيت انها متعبة ومتألمة فآثرت الصمت ، ولاذت به هي الاخرى حتى مطلع الفجر حيث وصلنا الى المدينة ، واستقر كل منا في غرفته في الفندق الكبير.

في مساء اليوم التالي اقيمت الحفلة ، وحين ازف دور الراقصة (ن .) اقتربت مني قبل ان اقدم رقصة (موت البجعة) وهي الاخيرة في البرنامج ، وهمست في أذني :

– حين تنتهي من التقديم ، اترك المسرح واجلس بين المتفرجين يسرني جدا ان ترى هذه الرقصة ، فهي رقصة حياتي كلها .

وامتثلت لطلبها ، فاخترت مقعداً خالياً في آخر الصالة ، وجلست عليه في انتظار بدء الرقصة .

ورفع الستار ، وبدأت الانغام تعزف ، ثم برزت هي من الظلام كما يبرز الفجر من الليل ، لم يكن يرى الا ظهرها . وراحت ترقص على ايقاع الانغام ، وهي ترنق بيديها كأنها الطير الذبيح ، واستدارت فترة ، ثم عادت سيرتها الاولى ، والانغام تقوى وتبطىء ، والراقصة تجوب المسرح حرة القدمين ، كأنما الارض اضعف من ان تجذبها اليها وأنسيتُ الزمن ، وشعرت كأنني في حفرة الابدية حيث الفرح الكامل الذي لاتشوبه شائبة من شوائب الجسد والتراب . وعادت الراقصة ترنق بذراعيها والاضواء تحيط بها كأنها هي التي تجذبها اليها ، ولم تلبث ان ارتمت ارضاً ، مثنياً بعضها على بعض ، متكومة على نفسها ، وإذ شعرت البجعة بنهايتها ارتجفت لحظة ، ورمحت برأسها ، ثم هدأت الى الابد .

وصفق الناس طويلاً ، واخذ منهم الاعجاب كل مأخذ ، وأسدل الستار

ببطء على البجعة الميتة ، وسافرت الفرقة في صباح اليوم التالي ، وكانت مهمتي قد انتهت .

★ ★ ★

لم تذكر الصحيفة التي بين يدي الآن ، كيف ماتت الراقصة ، ولا أين ماتت ، ولا من سيخلفها في هذه الفرقة . اتراها ماتت على خشبة المسرح بموت البجعة التي تقمصت نهايتها أم ماتت في احد المستشفيات بعيداً عن الاضواء والانوار وتصفيق الجمهور واعجابه . اتراها قد تغلبت على وحدتها وكآبتها بالموت ، ام ان الوحدة والكآبة سيلاحقانها بعد الموت ايضا ، وهي جسم هشيم راقد تحت الصفاح ؟!

ثمن حياته

شعر امين بشيء من الارتباك اذ دعاه الآذن لمقابلة صاحب المعمل فليس هناك مايربطه بصاحب المعمل . ومع انه مضى عليه زمن طويل وهو يعيش في هذا المعمل ، الا انه لم ير صاحبه الا لماما .

ولكنه قدّر ، رغم ذلك ، ان القضية تتعلق بزميله كريم الذي توفي منذ اسبوع .

ارتدى معطفه وصعد السلم العالي ببطء والآذن الشيخ يتقدمه . ولم يلبث هذا ان اشار اليه ان انتظر هنـا . فوقف على الباب بينما دخل الآذن الغرفة بوقار ، ثم خرج منها بعد لحظات وهو يشير الى امين بالدخول .

ووجد امين نفسه في جو هادىء دافىء مضيء ، كان صاحب المعمل رئيف بك جالسا الى طاولة كبيرة ، والى يساره محامي المعمل ، ووقف بالقرب منها مدير المعمل .

وقال امين في نفسه « خيرا ان شاء الله » ، ثم هز رأسه وهو مرتبك وقال :

- صباح الخير .

فأجابه رئيف بك ببشاشة :

- صباح الخير ياسيد امين ، تفضل استرح .

ولكنه لم يدر اين يقعد ، فالارائك نظيفة ، وخشي ان يلوثهـا بثيابه المشبعة بالزيت والحبر ، ان هو قعد عليها . الا ان المدير سرعان ما اشار اليه ان يقعد على اريكة قريبة منه فمضى نحوها متعثراً في مشيته .

واجال فيه المحامي لحظاً حاداً وتنحنح قليلا ثم غمز صاحب المعمل فقال هذا :

- لقد طلبت ان اراك لانني اعلم انك كنت زميلا وصديقا لابننـا كريم رحمه الله .

- نعم سيدي .

واذ ذاك قال المحامي بوقار :

- نريد منك ان تتصل بذويه ، ابيه وزوجته ، وتقنعها بالقضية .

- ولكن ياسيدي .

– نعم ، نعم ، نحن ندرك موقفك

– اقصد انني لا استطيع ان ..

فقال مدير المعمل :

– على كل حال اننا نريد منك ان تبلغها ان صاحب المعمل يريد احترامها.

واضاف المحامي :

– لا بأس مع ذلك في ان تفهمها ان ماوقع قد وقع وانتهى وان لا سبيل الى تغيير او تبديل فيه ، فأفضل الحلول ان يكونا عاقلين وينهيا المشكلة . اننا نريد ان ننهي القضية ؛ وان رئيف بك لـــن يقصر في مثل هذا المجال وهو المعروف بكرمه وسخائه على الغرباء ، فما بالك بعماله الذين يحبهم كل الحب .

وهز رئيف بك رأسه مؤيداً .

ادرك امين من عيني المدير ان المقابلة قد انتهت فاستدار وانصرف بهدوء .

ومضى الى بيت زميله كريم منقبض الوجه. لم يركب السيارة وانما سار ببطء في الشارع الطويل ورأسه يزدحم بكلمات صاحب المعمل والمحامي الكبير . «لقد حصل ماحصل .. وان الواقع وقع وانتهى .. »

اذن فهكذا تمر القضية ، وتسوى بهذه السهولة .

وعادت الى ذهنه صورة المدير الذي لم يتحرك طوال المقـــابلة ولم ينبس بكلمة ، وكأنه لم يكن المسؤول الاول عن نهاية زميله كريم .

منذ اسبوع قال له زميله صباحاً :

– اشعر ياامين بأنني متعب :

فظن امين ان ذاك كان من اثر السهرة التي قضياها في بيته ، فقال له :

ـ لقد اطلنا السهرة البارحة ، ويظهر انك تعبت . حاول ان تنام اليوم باكرا . ولكننا سررنا على كل حال . أليس كذلك ؟

ولكن امين لاحظ قبل الظهر ان زميله يتصبب عرقا ، وهو لايكاديشعر بحركة المطبعة التي يشرف عليها . فطلب اليه ان يوقف الآلة ويستريح قليلا لأن فرصة الظهر كانت قريبة ففعل ، وقام بعدهـا وقد استراح قليلا فتابـع عمله حتى المساء .

وفي اليوم الثاني جاء متأخراً على غير عادته كان لوجهه لون غريب ، هو مزيـج من اللون الاخضر والاصفر وسرعان ما التفت نحو زميله يقول :

ـ ياأمين ، اشعر بتعب قاس كأنني اصعد جبلاً عاليا ، وفوق كتفي حمل ثقيل .

آه ، لقد وقع اذن ماوقع ؟

كيف لم يستطع ان يجيب المحامي ؟! انه لم يجرؤ على الكلام ولعلهـــا المرة الاولى التي يرى فيها صاحب المعمل والمدير والمحامي معاً .

هل صحيح ان القضية يسيرة الى هذا الحد ؟

في الساعة العاشرة مال على كتفه وهو يكاد يسقط :

ـ لم اعد استطيع ان احمل .

وارسل امين معاونه ليخبر المدير ان وضع امين يسوء ساعة بعد ساعة .

وحضر المدير بعد فترة متجهم الوجه .

ـ ارى ان يتوقف زميلي عن العمل ، يجب ارساله الى الطبيب بسرعة

وحدجه المدير بنظرة قاسية ثم هز كتفيه :

ـ لايمكن . اننا مرتبطون بتعهد ، ويجب أن ننتهي من طبع كل هذه

الكمية من أوراق السجائر لكيلا يتعطل العمال بعد الظهر .

وشرب كريم قدحا من الشاي وعاد الى العمل . بينما راح امين يفكر بما قاله المدير ، فحين يقول هذا « لا يمكن » فمعنى ذلك انه يجيب الاذعان . فكم مرة مضى العمال الى طبيب المعمل وعادوا كما ذهبوا . ان الطبيب نفسه يحرص كل الحرص على رغبات المدير .

اما عصر ذلك اليوم فقد اشتد ألمه واحس بدوار ، وتصبب منه العرق بغزارة . فاتجه نحو المدير يقول بلهجة يائسة :

– لم أعد استطيع ان اعمل .

عند ذلك غضب المدير وصاح بنبرته المخيفة :

– اصبر الى المساء ، أراك اليوم تتدلل كالاطفال !

وأضاف متوعداً :

– إذا تركت العمل الآن . فمعنى ذلك انك لن تعود اليه ابدا !

وصبر كريم صبر من تدق في يديه المسامير ؛ وفي المساء حمله زميله والآذن الى السيارة .

لقد وقع ما وقع !

حين جيء بالطبيب الى منزل كريم ، قدر هذا ان كريم مات مسموماً .

وارتفع صوت امين يقول :

« أصحيح يارب اننا كنا نستطيع ان نبقي على حياته لو تداركه الطبيب في الصباح ! »

في ذاكرة امين الآن صورة عميقة لتابوت زميله كأنما نقرت بالازميل . ويتناهى الى سمعه صوت المطرقة الصغيرة وهي تدق آخر المسامير في ذلك

التابوت . لقد احس آنذاك بألم عنيف ورغبة في البكاء ، لم يشعر بمثلها من قبل.
لقد تألم الما كبيرا حادا اذ مـات زميله ، ولكن صوت المسامير كان افسى من الالم وأعنف .

عاد امين الى المعمل ومعه زوجة زميله وابوه . كان ابو كريم شيخا مسنا ولكنه على قسط كبير من الحيوية والصلابة . امـا زوج كريم فكانت امرأة صغيرة قصيرة سار الثلاثه مطرقين اول الامر ، ثم لم يلبث ابو كريم ان رفع صوته وكأنما كان يخاطب نفسه :

– هذه جريمة لاشك . واسوأ مافي الامر ان يستدعينـا صاحب المعمل لنسوي القضية .

واضاف بهياج وصوته يرتفع شيئا فشيئا :

– ان هذه القضية لاتسوى الااذا قام كريم من قبره : لقد كانوا سبب موته . لو انهم ارسلوه الى المنزل ليستريح ، لو انهم احضروا له الطبيب لمـا مات متسمما . لكل داء دواء .

قال له امين :

– يالهم من مجرمين . منذ شهر ذهب أحـد زملائنا الى طبيب المعمل . أتدري مـاذا فعل المدير ؟ لقـد حدثه هاتفيا وطلب اليه الا يعطي زميلنا تقريرا ، تأمل

– نعم يجب أن نخنق هذا الانسان .

ومال الى كنته يسألها :

– ألست من رأيي في وجوب متابعة الدعوى حتى نثأر لابننا .

وهزت المرأة رأسها ببطء ودموع قاتمة توشك ان تنفلت من عينيها :

ــ ستكلفنا القضية كثيرا من المال . اما اذا خسرنا الدعوى ...

ــ ولكن الحق معنا ، وليس هناك من يشك في ذلك .

ــ الحق ؟! ليته يظهر للناس واضحا كما يظهر لك

وقال امين بصوت منخفض :

ــ يجب ان تحذرا المحامي . فهو كثير الكلام ، شديد التأثير ؛ سيقول لكما ان القضية كانت قضاء وقدرا . وان هـــذه ليست اول حادثة تقع في المعمل .. وان ماوقع لاسبيل الى تلافيه .. انه خبيث جدا .

ــ لن تجوز علي كلماته . ساصمد أمامه ، مهما كلف الامر .

ــ عافاك الله ياعم . ان كلامنا معرض لمثل هذا الاهمال الذي ذهب ضحيته كريم .

صعد امين السلم العالي ووراءه ابو كريم وزوجه ، ودخل الثلاثة غرفة المدير .

وفاجأ ابو كريم الجالسين بقوله :

ــ نعـــم !!

فتحرك المحامي في جلسته ثم قال :

ــ لقد استدعيناك لننهي القضية . لقد حصل ما حصل وذاك قضاء الله كما تعلم ؛ المهم الآن أن ننهي هذه المسألة . لقد أراد رئيف بك أن يعوضكم عن الخسارة تعويضاً عادلاً كريماً على أن تسقطا الدعوى .

فأجابه أبو كريم بحدة .

ــ وما التعويض ؟

فقال صاحب المعمل :

ــ سأدفع لكما تعويض المدة التي عمل فيهـا كريم في معملنا : وسأضيف

اليها ألفي ليرة ، كما أتعهد بتعليم أبنائه .

– لن أسقط الدعوى ، ولو أعطيتموني المعمل كاملا . كان يجب أن يراه الطبيب ، فقد كان شفاؤه ممكناً .تلك كانت خطيئة المدير ولن أغفرها له أبداً.

– لقد كان قدراً محتوماً ، ولا سبيل الى تدارك مافات ، ولن تفيدك الدعوى كثيراً .

– سأستمر فيها ولو أنفقت كل ما معي ، ولو استدنت فوقه . يجب أن يغلق المعمل ويسجن المدير. سننبش جثة كريم، وسنطلب تشريحها ، وسنفعل..

واستدار نحو كنته يقول :

– أليس كذلك يا بنتي ؟

فأجابته مطرقة الرأس :

– نعم .

وخرج الجميع كما دخلوا ..

★ ★ ★

بعد يومين طلبت زوج كريم الى أمين أن يصحبها الى المعمل لتقابل المحامي ورئيف بك . فصحبها أمين وهو في عجب من أمرها !

وسألها وهو يسير الى جانبها في الطريق :

– هل عدلت عن رأيك ؟

فقالت بتأثير كبير :

– اريد أن أنقذ أولادي من مصير كمصير أبيهم . أريدهم أن يتعلموا ، ولن يتاح لي أن أعلمهم ولو جهدت . كان هذا حلم كريم .

وراحت تبكي ثم أضافت بعد برهة .

- كان يقول لي : سنقتصد في نفقاتنا لنعلم الاولاد . ولو انني كنت اجيد القراءة والكتابة لازداد دخلنا كثيراً ، واتيح لي عمل أفضل من هذا بكثير، سأدفع حياتي كلها ثمناً لتعليم الأولاد .

والتفتت نحو أمين :

- اريد ان أحقق له حلمه .

ثم قالت بعد فترة من الصمت المرهق :

- أرجوك ألا تحتقرني ان كنت أسقط الدعوى ، فليس هناك سبيل آخر .

وسألها أمين بشيء من الغيظ :

- هل قبل عمك ذلك ؟

- لقد أقنعته بعد عناء طويل .

وفكر أمين في نفسه :

« اذن فلو حصل لي أو لاحد من رفقائي مثل ما حصل لكريم لانتهت قضية حياتنا بمثل هذه السهولة . ثرثرة المحامي ، وقليل من المال . ووعد بتعليم الأولاد ولا شيء غير هذا . »

وقال للمرأة :

- لو كنت مكانكما لما قبلت بالمال ثمنا لحياة كريم ان صاحب المعمل

يعتقد أن كل شيء يباع ويشرى حتى حياة الناس وسعادتهم وطمأنينتهم في بيوتهم الصغيرة . ولقد حققتا نظرته . كان يجب ان تستمر الدعوى فلا يذهب دم كريم هدرا .

قالت المرأة وهي تهم بدخول المعمل بلهجة ساخرة وحزينة معا :

ـ انك لتبالغ في تقدير ثمن الانسان !!

حريق في قرية

دوّى في سماء القرية صوت نقـــله الايل الى شتى أنحاء القرية . فهُرع الفلاحون أفواجا من كل حدب وصوب ، وهم يقفزون بخطى سريعة واسعة ، مستجيبين لهذا النداء .

وقطع العم خليل حبل قصته ، وترك أخوه لفـافته ، واستيقظ اناس ، كانوا قد تمددوا تحت زرقة السماء طلبا للنوم ، فقاموا مذعورين ، والنعـاس

يتثاقل على أجفـانهم ، وحتى شوقي المجنون ُهرع فيمن هرعوا . وتركت أم أسعد أرجوحة ابنها المعلقة بين جدران الغرفة بعد أن دفعتهـــا دفعة قوية ، وأخذت سطلها بيدها ومضت مسرعة ، بينما شرعت حركة الارجوحة تنباطأ شيئاً فشيئاً ، فأفاق الطفل وشرع يبكي الا أن مشهد النور القريب من نافذته لفت انتباهه فكفّ لحظات عن البكاء ، وسمّر عينيه في هذا المشهد الغريب ، ثم عاد الى بكائه بعد دقائق معدودة ..

كان بيدر (جاسم) يحترق ، وقذف جاسم من أعماقه بصيحة مدوية :

ــ النجدة ياأخوان ، النجدة ، المساعدة ياأهل المروءة .

والتفت نحو بيدره الثاني ، وخوف حـار يلتهب في نفسه ، أن تتسرب النار اليه ، وحمل الناس جرارهم مملوءة ماء في سرعة عظيمة ، وصبوها فوق البيدر ، الا أن النار سرعان ما كانت تجد لها منفذاً آخر تنفذ منه .

والتفّ حول البئر جماعة كانت تتناوب المتح لتملأ بالماء الثمين ، جرار الفلاحين والفلاحات المنتصبة باعتداد فوق الرؤوس وكانت ثمة أصوات شق تلسع الناس كأنها السياط ، وكان أعلاها وأكثرها دوياً :

ــ عجلوا ، عجلوا ...

أما جاسم فقد كان يروح ويجيء كالمحموم ، والعرق المتصبب منه يلتمع فوق ركبته . لقد سلم الموسم من الجفاف ، هذا العـام ، كما سلم من الحشرات والديدان ، فمن أين جاءت هذه المصيبة الجديدة ؟ في لحظات قليلة تأتي النار على عمل سنة كاملة ، وعلى تعب عريض . وسُمع من بعيد خوار بقرة ، واعجباه لعلها هي الأخرى تتألم متحسرة لتعبها المهراق سدى طوال موسم العمل ..

وحتى شوقي ، شوقي المجنون ، أخذتـه موجة من الحزن والفزع ، فهب يضرب النار بيديه الصفراوين المعروقتين،غير آبه للسان النار الذي التهم يده .
وأخيرا خمد النور ، وظهرت في ضوء النجوم ، كومة سوداء خـافته ، يبصق عليها الماء ويلتمع ، هي حطام بيدر كبير كان يربض ههنا بانتظـار نقله الى المدينة يوم الجمعة .

وعاد كل الى جلسته التي برحها ، الا أن سؤالاً ملحـا كان على شفاههم :
كيف احترق البيدر ، ومن أين جاءت النار ، ومن الذي اشعلها ؟

وسمعت أم أسعد وهي تعدو نحو صراخ ابنها صوتاً يردد في شبه غمغمة « شوقي » ، « سيكارة شوقي » .

وانتقلت هذه الكلمات بين أهل القرية حتى ملأت أسماع الجميع في مثل لمح البصر . .

كان شوقي هذا قد جاء القرية منذ حوالي خمسة أشهر هربـاً من مدينة حلب : فقد سامه أبناؤهـا صنوفاً من العذاب ، حتى هزموه منها . . كانوا يطاردونه من حي الى آخر ، وهم يرمونه بالحجارة ؛ وكان يهرب ، أول الامر ، كلما أبصر أبواب المدرسة تقـذف بكتل من الطلاب ، الا أن طلاب المدرسة القديمة في الحي المتداعي . اكتشفوا أمره ، فـأخذوا يتربصون به الدوائر ، ومتى رأوه ، رشقوه بالحجارة ، وهتفوا ضاحكين « يحيا الملك . . شوقي ملك » وكان هو ينقبض مذعورا كلما سمع هذا الهتاف ، فيترك للسانه العنان ، وتسيل من بين شفتيه آلاف الشتائم ، وكان يمضي مسرعـا الى الفرن الخرب ، الذي يسكن فيه مع امه فيحضر منه كومة من حجارة ويرمي بها الطلاب ، أمـا

هؤلاء ، فلم يكونوا ليتمنوا أحسن من هذه المعركة أو يسعوا لأبهج منها ، وهكذا كانت تلتقي الحجارة في الهواء ، وعلى أرصفة الشوارع ، حتى اذا ما ضحك الطلاب ملء اشداقهم ، وجاء فوج آخر منهم ، تركوا لهم الميدان ، ومضوا الى منازلهم مسرعين ..

ثم كان يوم نصح فيه أحدالرجال الطيبين امشوقي أن تذهب به الى القرية، وتتركه هناك عند أحد اقاربهـا ، عسى أن تهدأ نفسه قليلاً ، وتستريح أعصابه المرهقة .

وهكذا انتقل شوقي الى هـذه القرية الصغيرة ذات يوم ، في سيارة من سيارات الشحن ، وحط رحله هناك بعيداً عن ضوضاء المدينة وصراخ اولاد المدارس ، وركن في منفاه الجميل هذا الحقول يقضي فيها أيامه ، ويعود في المساء فيتناول طعامه عند أقربائه هؤلاء . ويستلقي بعدها في ركن ما من اركان هذا البيت الكبير ، غير بعيد عن الاصطبل النتن ، يحمد المولى على ان لاطفال لم يكتشفوا أمره وان له في البرية الواسعة خير ملجأ

وكانت أمه توافيه مرة في الاسبوع او في الاسبوعين ببعض المآكل التي تمنحها اياها سيدتها ، كما تحضر له معهـا علبتين أو ثلاث علب من الدخان تشتريها من راتبها الشهري .

كان شوقي يستيقظ وأهل القرية ، مع انبلاج الفجر ، فيمضي الى الحقول مرة ، أو الى الطريق العامة مرة اخرى ، مستصحباً في جيبه ، علبة دخانه ودفترا من الورق الرقيق ، وحجراً من صوان يشعل به السيكارة ، فيقعد على حجرة بيضاء مربعة ، يعد السيارات التي تمر به طوال النهار متفحصا أشكالها،

مرهفا اذنه لسماع صوت ابواقها ، معجبـا بهذه الضجة ، متطلعا الى زوابـع الغبار التي تتركها السيارات وراءها .

★ ★ ★

حينما عاد جاسم لينام ،وكان النوم قد هرب من فضائه، فجلس في فراشه، ثم قام الى نعليه فلبسها ، وخلف وراءه باب الدار مفتوحاً .

كان الليل ساجيا . والهدوء يربع في شتى أرجاء القرية . كان كل انسان قد استلقى ليستريح من عناء النهار . أما هو فقد كانت آلامه تتمخض منذ زمن قريب . ومهما حاول أن يطرد من ذهنه صورة البيدر فانها لاتلبث ان تعود الى ذاكرته بكل وهجها وتألقها واضطرامها . ها هوذا يستعيد الحادثة بكل تفاصيلها وبأجزائها كافة ؛ وصعّد نفسا عميقا .كان جاسم حزينا ، وان كل قطعة من جسمه لتحس بهذا الالم ، فلقد تحمل رأسه ، في سبيل هذا البيدر، رياح الخريف وحر الصيف ، ولوحت الشمس وجهه . يده اليمنى بذرت الحب على مسافات واسعة ، وارهقت يده اليسرى صُرة القمح ابان البذار . امـا رجلاه فقد خدر التعب بطنها وان عرق الارهاق قد غسل جسده كله غسلاً طويلاً .. وبدت له القرية الملتفعة بالظلمة حزينة بائسة ..

– ليتني أرى ذلك الأبله المخبول ، اذن لدققت عنقه ، وأحرقته حياً كما أحرقني حياً . من جاءنا بهذا المجنون ، ولمَ وجد بيننا ، وفي قريتنا ، مانفعه، وما جدواه ؟ ان البقرة لخير منه ، فهي تعمل طوال أيام السنة ، والمحراث أفيد منه ، والارض أخصب منه . والكلب ، الكلب نفسه أنفع منـه فهو

يسهر على الدور والماشية ويحرس البيدر من سطو الساطين وعبث السراق.
لكل حي نفع هنا في القرية ، فما نفع هذا المجنون ؟

... وعندما رمى شوقي لفافته الأخيرة وهو منطلق الى القوم ، كان الهواء على استعداد لأن يضرم في هذه الفضالة الصغيرة ناراً كبيرة ...

ولاح جاسم من بعيد في الطريق المنحدرة نحو مدخل القرية شبحاً أسود يتلوى في اضطراب ، وعرف فيه غريمه شوقي ، فانحدر نحوه .

كانت هامة طويلة ، ذات شعر أشعث ورقبة طويلة وعظام بارزة، تلتمع عيناها في ظلام الليل ، وحث جاسم خطاه ، ودون ان يتردد تناول حجراً ضخماً من الارض وحمله بين يديه وضاعف خطاه ...

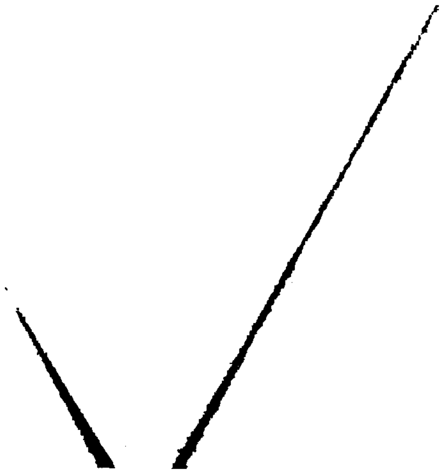
حين اقترب جاسم من شوقي كان هذا يبكي ، وهو يصفق بيديه وينفخ الهواء من فمه عليهما ، والدم يسيل منهما . ذلك بأن لسان النار كان قد لحس يديه اذ كان منهمكاً في اطفاء الحريق مع سائر اهل القرية . وها هو ذا الآن يحمل يديه المهترئتين المتألمتين ، وقد بردت الحروق فيهما . نظر جاسم الى شوقي فرأى عجباً . كانت يداه بلون التربة الحمراء ، شديدتي الاحمرار ، شديدتي الانتفاخ . وكان يرتجف وتصطك اسنانه ...

بدا الحجر الذي حمله جاسم باهظ الثقل ، شديد الوطأة في تلك الثانية ، فرمى به الى الارض ... ان هاتين اليدين المتألمتين لتختلفان عن قوائم البقرة، ان فيهما لشبهاً بيديه هو وبأيدي اخوته .

ومزق جاسم قطعة من ثوبه ، لف بها يدي شوقي ... وسمع من بعيد ، ومن مئذنة متواضعة صوت رخيم يقول :

« حي على الصلاة .. حي على الفلاح ! »

في صباح ماطر



لست أدري لماذا أشعر برغبة ملحة في أن أحدثكم عن ذلك اليوم الماطر، وصباحه الكئيب القاتم. ان صورته لاتزال ماثلة أمام ناظري، وذكراه لاتزال تلاحقني منذ سنوات بعيدة. ومن يدري فلعلكم تشاطرونني تحمل عبء ذلك اليوم الذي وقفت فيه جامداً لا أستطيع أن أفعل شيئاً البتة.

كان ذلك في أحد أيام كانون. استيقظت باكراً على عادتي كل يوم ورحت

أتصفح بعض الدروس ، قبل ذهابي الى المدرسة ، حين تناهت الى مسمعي حركة غير عادية في حينا ؛ وإن أية حركة تحدث في هـذا الحي ، يشعر بها الناس جميعاً . كان حيناً ضيقاً فلا تمر به عربة أو سيارة ، وبيوته متلاصقة حتى ليسمع الجار حديث جاره ، والأفراد طلعة الى مايحدث لكل من سكان الحي ، لأن الحيوات متشابهة ، والمصائر لايكاد يختلف بعضها عن بعض . وكأنما كان هنالك سلك دقيق يربط الناس جميعاً برباط واحد .

وارتديت ثيابي على عجل وخرجت من البيت ، فإذا أمي وأبي وأخي الصغير الذي لم يكن يفقه شيئاً مما يجري حوله ، قد سبقوني الى الوقوف أمام باب الدار ، وحين أطللت برأسي من بينهم ، وجدت أن الجيران قد اصطفوا أمام منازلهم ، وتجمع قسم منهم أمام المنزل المواجه لنا .

كان ثمة نظرات يتبادلونها ، وهمسات وانتقال من مـكان ، رغبة في التمكن من الرؤية . وزحمت أهلي الذين كانوا يسدون علي الطريق ، وحين تقدمتهم قالت لي أمي بالحاح :

– عجل في الذهاب الى المدرسة ، فقد حان وقتك .

الا انني أدركت من الحاحها هذا ، انها تريد أن تصرفني بسرعة ، فما كان مني إلا أن ازددت شوقاً للتطلع وأجبتها :

– لن يحين وقت ذهابي الى المدرسة قبل نصف ساعة على الأقل

وتسمرت في مكاني .

لم أستطع أن ألتقط ، أول الأمر ، أية كلمة من أفواه الناس ، مع كثرة كلامهم ، لأن أصواتهم كانت خافتة ، وجملهم متقطعة .

ثم برز أخيراً ثلاثة رجال يحملون جارنا العجوز . كان المنزل المواجه لنا منخفضاً متهدماً ، يتألف من عدد كبير من الغرف يلاصق بعضها بعضاً ، وتحيط بباحة ذات أحجار خربة متآكلة ، وكانت هناك عدة درجات كبيرة تصل الباحة المنخفضة بالشارع الضيق ، فكان لابد للصاعد الى الشارع ، أن يحني رأسه أمام قنطرة الباب المنخفضة .

واذ التفت لأسأل والدي عن القضية ، وجدته يحرك يديه بعصبية :

– هل مات جارنا ؟

فرفع رأسه أنْ لا ، وقالت امي بحرقة :

– ليته مات !

ولم تتابع كلامها ، فقد انبعث عن الرجل العجوز صرخة قوية اذ ارتطمت احدى رجليه ببوابة البيت الحجرية .

ورأيت الوجوم يغشى وجوه النسوة ، والشفقة تعتصر العيون . كان الصوت الذي انبعث منه قوياً حاداً نفاذاً أشبه شيء بنباح الكلاب . وشعرت بالغصص في حلقي ، وأنا أرى الى بنطاله الأسود يتدلى فارغاً من كلتا ركبتيه . كنت أعلم أن جارنا كسيح ، ولكن لم يدر في خلدي قط ، كيف يكون المرء كسيحاً ، وأدركت الآن بسرعة أنْ ليس لهذا الانسان من أرجل ، بل له فخذان فقط ، وان احدهما هو الذي ارتطم بالبوابة الحجرية منذ لحظة فآلمه إيلاماً شديداً .

لست أدري منذ متى أقام هذا الرجل في المنزل المواجه لنا . لأنني أعرف انه يسكن هذه الغرفة منذ بدأت أدبُ في هذا الحي . وكنت انزل ، بعض

الأحيان ، لألعب مع أولاد الجيران في هـــذا المنزل ذي الغرف الكثيرة ، فنقترب جميعاً ببطء وحذر من النافذة الوحيدة في غرفته نتطلع إليه ، كنا نراه دائماً جالساً القرفصاء على طراحة ، وقد غطى رجليه بغطاء صوفي . لم يكن يزوره أحد ، بل كانت تمر عليه خادمة مسنة ، عصرَ كل يوم ، وهي منصرفة من الخدمة ، تحمل إليه صرة صغيرة ، وقد لمحتُها غير مرة تنظف له الغرفة وتعنى به . . .

ولقد علمت فيما بعد – ولست أذكر كيف كان ذلـك – أن له ابن أخ يسكن في الحي المجاور ، وكان ابن أخيه هذا يأتي الى بيت عمه كل يوم أحد فيحضر له شيئاً من الطعام ويتفقده بسرعة ، وقد رأيته يوماً يـملأ له نابض الساعة التي على الحائط . وكنا أنا وأبناء الحي نضحك من ابن الأخ هـذا الذي يكاد يبلغ عمر عمه .

ترك أحد الرجال الثلاثة الذين كانوا يحملون الرجل الكسيح ، العبء الى رفيقيه ، ومضى مسرعاً ليحضر حماراً كانوا قـد أوقفوه في آخر الحي ، ولم أكن قد انتبهت إليه حتى ذلك الحين . بينما وقف عـدد من الرجال الغرباء عن الحي بالقرب منه . وسارعت إحدى الجارات تحمل الى الرجـل غطاءه الصوفي وهي تردد :

– الطقس بارد ، بارد جداً .

وسمعتُ احدى الجارات تقول لأمي :

– هؤلاء هم الموظفون

فأجابتها امي بسرعة :

– موظفو الحجز .

وقالت جارة اخرى :

– الذي لايدفع اجرة البيت يخرجه صاحب الدار منه ، اللهم نجنا .

والتفت الى أبي استطلع رأيه . فلم يجب بكلمة ، بل أومأ برأسه .

ثم أضافت الجارة الثرثارة .

– لم نر صاحب الدار .

– لقد أرسل هؤلاء بدلاً عنه مع الموظفين ، ومعهم أمر بتخلية الغرفة .

وتدخلت جارة غيرها تقول :

– ألم يكن باستطاعته ان يعفي هـــذا المسكين من آجار البيت ، ما أطمــع الإنسان !

وقالت الجارة الثرثارة بنبرة فيها الألم والحدة والسخرية :

– سيأخذ مالك البيت ماله معه الى العالم الآخر !

وتساءلت وأنا في ضيق :

– ولماذا لم يدفع الاجرة ، وهل كان يدفع من قبل ؟

في هذه المرة خرج أبي عن صمته ، وهو يرى الى عيني تنطقان بالسؤال :

– لم يكن له غير ابن أخيه ، واعتقد أنك تعرفه ، ومع أنه لم يكن على شيء من سعة اليد ، فقد كان يؤمن لعمه اجـــرة البيت . وكان هنالك من يرسل له الطعام بين الحين والحين .

واضطربت الكلمات في حلقه ، فقلت له :

– لم أفهم .

ـ لقد مات ابن أخيه منذ حوالي شهرين .

ـ آه ... فهمت !

كان الرجل قد أحضر الحمار ، فوضعوا عليه الكسيح ، وربطوه بحبل فبدا كأنه حزمة من حطب في طريقها الى السوق . وكان رأسه الكبير يلامس رقبة الحمار ويكاد يصطدم برأسه . لم نسمع الرجل الكسيح ينبس بأية كلمة أو ينطق بأي حرف طوال نقله باستثناء تلك الصرخة التي ظلت معلقة في الجو . وسار الحمار ومن ورائه العتالون والموظفون . وكانت عيون الجميع تتبع الموكب متعبة .

وعاد معظم الجيران الى منازلهم الا بعض الثرثارات اللواتي كن لايزلن يعلقن على الحادث .

ودخلنا جميعاً الى البيت ، فرأيتني أسأل دون أن أقصد أحداً بالسؤال:

ـ الى أين أخذوه ؟

فقال أبي ببطء :

ـ أعتقد أنهم سيأخذونه الى مأوى العجزة ، فليس هناك من يأويه .

وهزت أمي رأسها :

ـ هذا اذا كان هناك متسع لضيف جديد . فالمكان مكتظ بالعجزة ، أخشى أن يضعوه على باب إحدى الكنائس ، مع من نراهم كل يوم أحد حين نذهب الى الصلاة .

كان أبي قد ارتدى سترته وتأبط غداءه ومضى في صمت. قالت له أمي :

ـ لاتنس الشمسية !

وفي الواقع فقد كانت قطرات من المطر تهطل ببطء، وازداد الجو حلكة .

حين نظرت الى الساعة ، وجدت انها تقارب الثامنة فتناولت كتبي واتجهت الى المدرسة . لم أكن أفكر بأي شيء ؛ بل كنت أشعر بشيء يشبه الغصة في حلقي ، وحثثت الخطا . ربما كنت أريد أن ألقي نظرة أخيرة على جارنا ، ولكن يبدو أن الرجال ساروا به في طريق اخرى ؛ ولم أكن أريد أن اطيل الطريق ، فبعد ربع ساعة يقرع جرس المدرسة .

كانت مدرستنا القديمة تقع في حي ضيق منحدر كثير التعرجات . ولمحت من بعيد عدداً من رفقائي يسيرون ، فأردت ان اناديهم او ألحق بهم ، واذا هم يتجمعون فجأة ويقفون في مكانهم ، وبقفزة واحدة كنت بينهم .

ونظرت الى ما كانوا ينظرون كان كلب مقتول ممدداً على الحضيض وقد سال من رأسه دم أسود وتخثر على شعره الأسود الكثيف ، وظهرت قطع من الوحل عليه . ورفس أحد الطلاب قوائمه فلم يتحرك .

– انه ميت !

– ترى من قتله ؟

فلم نستطع ان نتكهن بذلك . وسرعان ما بادر احد الزملاء يقول ، وقد بدا له انه يفوقنا علماً وإطلاعاً :

– البلدية . هناك موظفون يحملون البنادق ويقتلون كل كلب يرونه شارداً في الطرقات لاصاحب له .

وبدا لنا ان هذا التفسير معقول ، فاقتنع به الجميع ، وتابعنا السير ، فالتفت الى رفيقنا اسأله :

– ولكن لماذا يتركونه هكذا في الطريق ؟

فمد شفتيه وقال لي :

– هذا أمر لاأعرفه :

وتناهى الى سمعنا صوت الجرس فمضينا مسرعين .

كان المطر يتساقط على مهل ، على بـلاط الطريق ، وفوق أكتـافنا ، وعلى رؤوسنا !!

قبور فوق الارض

خرج من البيت لا يلوي على شيء ، واتجه بخطا سريعة ، يقطع الزقاق الضيق ، ليبلغ الشارع العام ، حيث يجد في آخره الصيدلية الكبيرة الواسعة. كل ما كان يريده ويفكر فيه أن يصل الى الصيدلية بسرعة كي يبتاع الأدوية التي أوصى بها الطبيب ، قبل أن يغادر منزله .

لقد سمع الطبيب يقول له ولأبيه على انفراد : « ان الأمل في شفائها

ضعيف بعض الشيء ، إلا أننا سنبذل كل ما في وسعنا . » ولم يزد على ذلك ، بل وعد بالعودة في اليوم الثاني . لذلك كان أمله كله متعلقاً بهذه الوصفة الطبية التي كان يمسك بها في يده وهو يهرول في سيره .

وحين بلغ أول الشارع تطلع الى نهايته فرأى أنوار المخازن مضاءة كلها لم يطفأ واحد منها ، فشعر بقليل من الاطمئنان ، اذ عرف أن الصيدلية لم تغلق بعد وانه لن يضطر الى اضاعة أية دقيقة في البحث عن الصيدلية المناوبة في تلك الليلة ، ومن يدري فقد تكون بعيدة في هذه المدينة المترامية الأرجاء. غير أن شيئاً من الخوف كان يساوره حول ثمن الدواء ، فقد كانت الوصفة تشتمل على أسماء كثيرة من الأدوية ، ومع أنه كان في أوائل الشهر ، أي انه قبض راتبه منذ أيام قلائل ، الا انه كان يعرف أن ليس الراتب بركة كما يقول الناس في مدينته ، وها قد سلخ الطبيب قسماً منه بزيارته ، وعسى ألا يحتاج الى أطباء آخرين يأتون على البقية الباقية من راتبه .

قال في نفسه : « أرجو الا يكون ثمن الدواء غالياً » ولكنه كان يعرف أن هذه أمنية بعيدة المنال ، فالأدوية غالية الثمن ، وهو يعرف ذلك حق المعرفة .

ولج باب الصيدلية ، فبهرته أضواء النيون ومعروضات الواجهة الزجاجية ، وليس يدري لماذا شعر كأنه يدخل ملهى او مقصفاً : وعند ذاك فقط تذكر هذه الجملة التي سمعها قبل أن يغادر البيت ، لعلها كانت آخر جملة ، او الجملة الوحيدة التي نطقت بها امه : « لا حاجة للدواء ، أريد قبراً واسعاً » . لقد تذكر الآن هذه الجملة التي قالتها له أمه ، ولكنه لم يلتفت اليها آنذاك وما وعى لها معنى . ثم ها هي ذي تبرز فجأة في ذهنه وتلح عليه الحاحاً شديداً « لا حاجة

للدواء ، أريد قبراً واسعاً » . حقاً لقد قالت له امه ذلك . وهي شبه غافية في فراشها الصغير الذي وضع على المقعد الخشبي الوحيد في البيت . فشكل شيئاً ما يشبه السرير .

وجرّه من شروده هذا اندفاع الناس بين داخل وخارج في بهو الصيدلية الواسع ، ورأى نفسه يتقدم نحو الصيدلي القصير الذي كان يرتدي صداراً ابيض ، فترتطم رجله بالميزان المعدني الكبير الرابض في الطرف الأيمن من الصيدلية . تفحص الصيدلي الوصفة الطبية ، ومضى بسرعة من وراء منضدته يلتقط الأدوية من الرفوف بمهارة وسرعة مدهشتين، وعجب في نفسه من سرعة هذا الصيدلي وخشي أن يخطيء وهو في غمرة سرعته تلك ، فيبدل دواء بدواء.

رصف الصيدلي الأدوية على اللوح المرمري أمامه وراح يحسب ثمنها ، وأضاف بسرعة وهو يضع الأدوية في صرة أمامه :

ــ ثلاث وعشرون ليرة وعشرة قروش

فأطرق الشاب قليلا . لكم ود لو يفاصل الصيدلي ويساومه ، على عادته كلما دخل متجراً او مخزناً ، ولكنه تمالك نفسه وصرف هذا الخاطر عن ذهنه بقسوة ، ولم يلبث ان رفع نظره الضعيف الى الصيدلي واستجمع شجاعته ثم قال:

ــ الا يمكن الاستغناء عن بعض هذه الأدوية ؟

لا يدري كيف جاءه هذا الخاطر ، الا انه اعجب بهذه الفكرة التي طرأت على باله ، فاذا لم يكن هناك مجال لخفض سعر هذه الادوية ، فليختصر منها على الأقل !

نظر اليه الصيدلي طويلا ، وهز رأسه عدة مرات . ثم قال له وهو ينقر

البلاطة المرمرية البيضاء امامه :

- يمكن الاستغناء عنها جميعاً ! !

كان يعرف ان من عادة الصيادلة الا يطيلوا الحديث مع زبائنهم ، ولم يدر لماذا ابدى الصيدلي رحابة الصدر هذه . أتراه اشفق عليه . فسأله :

- وكيف يمكن الاستغناء عنها ؟

عند ذلك نظر اليه الصيدلي نظرة جامدة كنظرة حامل الموتى ، وفتح الصرة ببطء واشار الى ابرة صغيرة ، ثم سحبها ووضعها أمام عينيه ، فكادت تمس أنفه ، وقال له :

- مورفين !

فهز رأسه ولم ينطق بحرف .

فأعاد الصيدلي كلمته بشيء من النزق :

- مورفين .

كان في صوته مايشبه الصراخ ، وكأنه يريد أن يقول له « ألا تفهم ؟ » ، ولكن عينيه ظلتا معلقتين به كأنهما مسمرتان ؛ فأدرك انـــه لم يفهم معنى كلمته فعلاً .

- من المريضة ؟

- امي .

- وهل تقيأت ؟

فسارع الى الجواب كأنه وجد في سؤال الصيدلي بشيراً بالبرء :

- نعم ، نعم ، صباح هذا اليوم !

عند ذاك ضرب الصيدلي كفاً بكف وتمتم :

– إن إنتشار هذا المرض ليدعو الى الخوف والفزع .

ماأعظم هذا الصيدلي الطيب ، انه لايقل عن الطبيب فهماً ومعرفة .

– وهل عرفت مرضها ؟

لم يجبه بكلمة ، بل أعاد الابرة الى الصرة وربطها بتؤدة ، وقال كمن يخاطب نفسه :

– ابرة كل يومين ، ثم أبرة كل يوم ، ثم ابرتان في اليوم الواحد وهكذا..

– ولكن الطبيب قال لنا ان هذا الدواء سيخفف عنها ألمها .

– هذا صحيح ، ولكن المورفين ليس دواء !

– وهذه العُلب الاخرى ، أن فيها الدواء فيما أظن ؟

– مقويات ، مجرد مقويات ، اطباء هـــذا الزمان ، يخدرون الجسم فيضعفونه ، ويعطونه في الوقت نفسه المقويات ، وهم يعلمون حق العلم انْ مامن دواء لهذا المرض .

سأله بلهفة :

– وما هذا المرض ؟ انني لاأفهم .

قال الصيدلي بلهجة ملؤها البساطة :

– السرطان .

ففر فمه دهشة ، ولم يعد يدري ماذا يقول . ووجد نفسه ينقد الصيدلي المبلغ المطلوب ، ويحمل صرة الأدوية ويمضي .

وحين كاد يبلغ باب الصيدلية ، التفت فجأة نحو الصيدلي وقال له :

ـ شكراً ، طاب مساؤك .

وأشار إليه الصيدلي باصبعه أن اقترب ، فاقترب منـــه محاذراً ، فهز الصيدلي رأسه وهو يحدق بعينيه،وقال له بصوت فيه شيء من المودةوالحنو :

ـ تشجع يافتى ، فأنت رجل !

لم يجبه بكلمة بل انطلق صامتاً . كانت الصيدلية خاليـة من الناس ، وراح أجير الصيدلي يغلق الابواب الجانبية . وحين انتهى الى الشارع وجد نفسه يخفف من سرعته ويسير متباطئاً غير آبه لهـــذا الدواء الذي انطلق مسرعاً لشرائه ، مقدراً أن امه ستجد الشفاء فيه بعد ساعات قليلة .

وعاوده صوت أمه وهو يسير مستأنياً في ليل الشارع الطويل . ألعلها كانت تدرك بحدسها أن مرضهاهذا لاشفاء منه فتمنت امنيتها الأخيرةتلك ؟!

وراح يتفكر في معنى كلمتها ، فلم يفهم لها معنى . فيمَ أرادت قبراً واسعاً ؟ وما فائدتها منه ؟ ألم يكن أجـدر بها أن تطلب أمنية . لاشك في أن الألم كان يضايقها فلم تكن تعي ماتقول . ولكن سرعان ماعاد صوتهـا الى اذنه قوياً حاداً كأنه صرخة ألم تنبعث من فم طفل صغير « أريد قبراً واسعاً » وتذكر أنها كررت قولها مرتين ، وكأنما كانت تخاطبه وحـده بكلماتها تلك مع أن أباه واخوته كانوا حولها .

وفجأة التمع في ذهنه معنى كلماتها . حدث ذلك على نحو سريع جـداً حتى ليعجز الانسان أن يقدر عظم سرعته ، كوميض برق ، أو رفة جفن خاطفة ، أو مذنب يهوي سريعاً من احدى النجوم فتلتقطه نجمة اخرى آه صحيح ، وهز رأسه ، صحيح جداً ، كيف غابت عن ذهنه كل تلك الصور

والذكريات والكلمات التي طالما رددتها أمه على مسمعه منذ طفولته الى اليوم؟؟

نقل صرة الأدوية من يد الى اخرى وعاد بذهنه الى البيت وامه والضيق الذي لازم الأسرة منذ كانت . فأحسّ بكثير من الشفقة نحو أمه ، وشعر في الوقت نفسه ، بالعجز ، العجز المطبق . فهو لايستطيع أن يفعل شيئاً ، وان مرتبه بالاضافة الى القليل الذي يكسبه أبوه ، لايكاد يقوم بأود الأسرة . وتذكر هذا الضيق الذي يأخذ بخناق الأسرة ، في الليل خاصة ، حين يصطدم النيام بعضهم ببعض ، وهم ممددون على فراشهم المبسوط على الأرض ، الوالدان والاخوة والاخوات ، يحشرون فراشهم الواحد الى جانب الآخر في هـذه الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الأربع . لقد قالت أمه عشرات المرات : «ليتنا نستطيع أن نستأجر إحدى الغرف المجاورة في هذه الدار الواسعة التي تضم خمس أسر ، اذن لاستطعنا أن نتوسع قليلا » . كانت تكرر هذه الأمنية في أغلب الايام ، ولاسيما حين تشعر بألم في ظهرها من جراء طي الفراش وحملها الواحدة تلو الاخرى ، لوضعها خلف الحاجز الخشبي في نهاية الغرفة نهاراً ، واعادة حمل كل منها ومده مع الاغطية والوسائد أول الليل .

وساوره كثير من الدهشة اذ ادرك انه كان يعرف كل هـــذه الامور ، ومنذ زمن بعيد ، فلطالما كررت امه على سمعه وسمع اخوته القولة المعروفـة « الضيق بشع ، والبحبوحة جيـدة ، ولو كانت في القبر . » وتذكر كيف كانت الاسرة تسارع ، في بعض الاحيان ، لاحتلال احدى الغرف التي تشغر مؤقتاً في الدار . كان يشعر الجميع بشيء من الحرية فيتنفسون بغبطة ؛ وكانت امه تردد في تلك الظروف خاصة ، ليتنا نستطيع أن نستأجر غرفة اخرى ،

كي ينام ويدرس الاولاد فيها ، ونخصص هذه لي ولزوجي وللطعام والضيوف.
ولكن ماأسرع ماكنا نلملم أشياءنامن الغرف التي احتللناها ، للاسرة الجديدة
الوافدة على دارنا الواسعة .

قال في نفسه : « يالغبائي ! انني متلبد الفكر في هذا المساء . »
وتأكد آنذاك أنها قالت كلماتها تلك حقاً وهي تعي ماتقول وأنه لم
يكن مخطئاً فيما سمع .

انتهى الى مدخل الحي الضيق الطويل الذي تقع الدار في نهايته . كانت
قدماه ثقيلتي الوطأة كأنهما لاتريدان الوصول الى الدار . وتساءل في نفسه :
ترى هل تشفى من مرضها وهل يستطيع أن يستأجر غرفة اخرى ، ذات
يوم ، كي تجد الاسرة شيئاً من البحبوبة ، الا انه صرف هذه الفكرة عن
ذهنه . لم يكن يشغله الآن الا شيء واحد ، هو القبر الواسع . ترى هل
قدرت امه أن الارض غالية في المقبرة ، غالية جداً ، أنّى له ان يشتري
ذراعين من الارض ؟! وافتر فمه عن ابتسامة بريئة . هذا منتهى المحال . اذا
ماتت ... واقشعر جسمه لهذه الفكرة ، وصرخ بملء صوته : « لاسمح الله »
ولكنه عاد يقول في نفسه هامساً : اذا ماتت فستدفن في القبر الذي دفن
فيه جده وجدته منذ عشرات الاعوام ، ومن يدري ، فإن صح مازعم أبوه
فقد دفن فيه اسلاف الاسرة جميعاً . وتخيل العظام القديمة ، في قبر الاسرة ،
تلملم نفسها قليلاً كي توسع مكاناً لزائر جديد ، تماماً كما فعل هو واخوته يوم
وضعت امه اخته الصغيرة لبضع سنوات خلت .

ضغط على الصرة بكل قوته حتى تعبت رؤوس اصابعه ، واعجب بهذا

الدواء الذي يحمله ، ألا ماأجهل الصيدلي ؛ المورفين ، نعم انه يحمل الى امه المورفين ، وفيه الخدر ، الخدر اللذيذ ، لسوف تتخيل نفسها سعيدة ، سعيدة جداً ، في منزل واسع ، في منتهى الجمال والفخامة ، لن تجد المنزل ضيقاً ولن تراه قبراً فوق الارض ، لا ولن تفكر في قبر واسع بعد ذلـــك . ستجد كل شيء جميلا ، جميلا ، وسيموت ويتلاشى الفقر والجوع والضيق ، وسترى أنها اصبحت غنية تعيش في بحبوحة واسعة لاحـد لها اكبر من المنزل الذي تقيم فيه بكثير .

حين دخل المنزل ، كان ابوه قد احضر الممرضة التي تقطن غير بعيد عن المنزل لتعطي امه الابرة وكان كل شيء جاهزاً في انتظار الدواء .

سارعت الممرضة الى ملء المحقنة بمحتوى الابرة ، والتفتت الى امه بعد ان غرزت الابرة في جسمها الجاف ، واخرجتها برشاقة تدعو الى الاعجاب ، فقالت لها الجملة التي اعتادت ان تكررها لكل مريض :

ـ فيها العافية !

في ممر معتم طويل...

حين أشار عقربا الساعة الى الثامنة ، طويت أوراقي وأغلقت الملفات ، ثم وضعتها كلها في الأدراج ، ونهضت بتثاقل ، وأنا أشعر بالتعب والإرهـاق بعد عمل طويل مستمر ابتدأ منذ الساعة الثانية ؛ أخرجت علبة الدخـان وتناولت لفافة منها ، وفي أصابعي شيء من التشنج لكثرة ماضغطت على قلم الحبر ، فأشعلتها وأرسلت زفرة طويلة خرجت محملة بالارهاق ، وخطوت

خطوات بطيئة متأنية ، وذهني غائم ، وفكري شارد .

قلت في نفسي : هاءنذا قد دفنت يوماً آخر أيضاً، فالحمد لله على كل حال!

كنت في ذلك الحين أعمل موظفاً في مكتبة عامة تابعة لمديرية تضم عدداً كبيراً من الموظفين والمستخدمين ، وكان لا بد لنا جميعاً ، اتباعاً للقوانين المرعية ، من أن نوقع على سجل الدوام ساعة مجيئنا الى العمل ، ووقت انتهاء الدوام.

خلفت المكتبة ورائي ، ورحت أهبط سلالم المبنى ببطء ، وأنا ألتهم الدخان التهاماً ، وحين بلغت الطابق الأرضي – حيث يربض دفتر الدوام – كانت الساعة على وشك الانتهاء . في تلك اللحظة ، وكنت أسير وحدي في ممر طويل ، لمحت فتى صغيراً لا يكاد يتجاوز العاشرة من عمره يتقدم نحوي ، فلم أستبن منه الا عينين مليئتين ، فيهما كثير من الحدة والقسوة، ووجهاً شاحباً نحيلاً لا يكاد يستر الجلد فيه العظام .

تساءلت في نفسي بشيء من اللامبالاة :

– عجباً فيم مجيء هذا الفتى الآن وقد أغلقت المكتبة وانتهى الدوام ؟ !

ولحني الفتى فهرول نحوي .

قلت له :

– نعم ، ماذا تريد ؟ لقد أغلقت المكتبة الآن ، وانصرف القراء .

– لا أريد أن اقرأ !

كان وجهه ينطق بالحزم والجد وقد ارتسمت في عينيه معالم التصميم والثقة . وأضاف تواً :

– أريد أن ارى المدير او معاون المدير .

فأضحكني طارق الليل هذا ، ولم أكلف نفسي عنـاء النظر الى ضوء غرف الادارة .

– ليس المدير ولا معاونه هنا .

– والموظفون ؟

– ليس في المديرية أحد .

– وأين ذهبوا ؟؟

فتبرمت به ؛ كانت اللفافة قد انتهت فرميتها على الأرض ووطأتها بعصبية، ثم نظرت اليه وقلت له وأنا احاول التخلص :

– لقد ذهب الجميع لتعزية موظف مات أبوه !

فأطرق قليلاً ، وشعرت أنا بأن هذه النكتة سخيفة ولم اعرف ما الذي حملني على القائها .

ثم التفت اليه فجأة وقلت له :

– لا شك أنك عامل المطبعة ؟

لقد ذكرت ، في تلك اللحظة ، أن المدير قبل انصرافه قد أوكل الي أن أرسل الى المطبعة نموذجاً عن بطاقة دعوة لمحاضرة ستلقى في مديريتـنا بعد اسبوع حول العدالة الاجتماعية .

وأضفت قولي :

– لقد تأخرت قليلاً يا فتى ، فقد أرسلت الدعوة الى المطبعة منذ ساعة.

ولكنه نظر الي بدهشة ، وهز رأسه :

– لست عاملاً في المطبعة .

والواقع أن ثيابه كانت أنظف نسبياً من أثواب العمال الذين اعتاد صاحب المطبعة ان يرسلهم الينا ، رغم مايبدو عليها من هلهلة واهتراء .

عند ذاك أهملته ، ومضيت الى دفتر الدوام ، وظل هو في ذلك الممر الطويل المعتم الخالي من النوافذ والكوى .

حثثت الخطـا ، فسار خلفي ببطء ، وبرز له في أول الممر آذن المديرية الكهل بوجهه الأملس المتحجر .

قال له الفتى :

– هل المدير هنا ؟

فأجابه الآذن بصوته الأبح :

– كلا !

– فمعاون المدير اذن ؟

– غير موجود !

– أأنت أحد الموظفين ؟

فعيل صبره وقال له :

– نعم ، ماذا تريد ؟

قال الفتى بسرعة كتلميذ يسرد درساً حفظه غيباً :

– أريد ان اقابل المدير او معاونه لأتوظف هنا . انني أجيد الكتـابة وخطي جميل .

كنت قد أخرجت قلمي وأمسكت به وشرعت اوقع ، فتسمرت في مكاني وأنا منحني الظهر كأنني أصبحت تمثالاً من الصخر .

صمت الآذن برهة كانت كالدهر في طولها ، ثم رفع اليه عينين قاسيتين :

ـ عمرك ؟

لم يذكر الفتى عمره ولكنه قال :

ـ أنا أكبر اخوتي الخمسة سناً .

فعاد الآذن الى اطراقه . ومرت فترة اخرى نظر اليه الآذن الكهل بعدها من عينين ترتفعان عن قامته بأكثر من متر .

ـ شهادتك ؟

ـ أبي مريض ، مريض جداً ، وكل الناس يعرفون ذلك .

كنت قد كتمت أنفاسي حين بدأ الفتى يتكلم . وظللت كذلك الى ان انتهى من سرد قوله ، فتنفست تنفساً طويلاً .

ثم نظرت الى الآذن ، فاذا هو صامت ، ولست أدري أية قوة لجمت فمه فلم يتكلم ولم يسأل ولم يناقش ، على عادته ، بل ظل يرنو الى الفتى بعينين كأنما قدتا من البؤس ، وظل كل منهما ينظر الى الآخر برهة ما ، بينما كان الآذن يحرك خاتم زواجه الفضي ، والفتى يخفي جيب سترته الممزق ، بيده الصغيرة.

قال الفتى أخيراً :

ـ من الضروري أن أرى المدير ، من الضروري ان أراه ، فسيعينني كاتباً لا محالة ، ان خطي جميل !

نظر اليه الآذن الكهل دون أن يظهر على وجهه اي انفعال او يرتعش منه جفن ، ثم أخرج رزمة المفاتيح من جيبه بتؤدة ، واقترب من مفاتيح النور فراح يدير الواحد تلو الآخر ، وبدأت العتمة ترين شيئاً فشيئاً في الممر.

تطلع الفتى أمامه فرأى الممر وقد أصبح اشد طولاً مما كان ، وأكثر عتمة وظلاماً من قبل . وظل فترة يحدق في هذا الممر المعتم الطويل الخالي من النوافذ والكوى ، والآذن واقف من بعيد مطرق صامت يمسك مفتاح باب المديرية بيده الهرمة .

أطبقت غطاء قلم الحبر بشدة ، وضغطت عليه بأصابعي ، ثم أشعلت لفافة جديدة ، وسرت في طريقي ...

مصرع الفتى الاعمى...

استيقظ الفتى « محمود » على عادته كل يوم ، اذ سمع صوت الديك القريب منه . ففرك شعره بأصابعه المتسخة ، ثم نهض متلمساً طريقه بيديه حتى انتهى الى باب الزريبة ، فجلس على حجر كبير ينتظر قدوم « حميدو » كي يشرعا في القيام بجولتهما اليومية .

كان يحس بانقباض في صدره ، ويبوسة في حلقه ، الى ما يشعر به من جوع

بعض معدته ، فحميدو لم يسمح له مساء البارحة بكسرة من الخبز يسد بها رمقه ، انه ليذكر جيداً ما قاله له :

ـ لقد أكلت عند الظهر ، وهذا كافٍ !

وحرك يديه ثم نقلها على الأرض ، فلم يعثر الا على مجموعة من الحصى والأوساخ ، فليس في المكان الذي يبيت فيه أي شيء ، اللهم الا بعض دجاجات وديك ومجموعة من الأرانب ، وضعت في هذا القبو النتن . والحق انه كاد يَحْمَدُ عثوره على هذا المكان ، وسماح الحاج يونس له بالمبيت فيه حظاً لايجود به القدر كثيراً . كان ذلك حين عاد الحاج يونس من الحج لسنوات خلت ، فأخذته شفقة على هذا الفتى ، ورأى أن يتكرم عليه تكرماً كبيراً ، فسمح له بالنوم فيه ، وأخذ عليه عهداً ألا يمد يده الى ما فيه من بيض : ولقد كان محمود وفياً بعهده مادام في جيبه كسرة من خبز ، أما حين يكون جائعاً فان الله غفور رحيم .

وبينما هو في جلسته اذ سمع خطوات تقترب من القبو ، فعرف فيها خطوات الحاج يونس الذي جاء يتفقد حيواناته ، كان هذا دأبه كل صباح ، يحضر قليلاً من فتات الطعام للحيوانات ، ويُخرج محمود من القبو ، ثم يحكم اغلاق الباب ، فيجلس محمود على الرصيف منتظراً قدوم حميدو .

قال له الحاج يونس :

ـ لقد تأخر حميدو .

ـ نعم ، فقد أصبح كسولاً جداً في الأيام الأخيرة ، وصار يتأخر في المجيء يوماً بعد يوم .

فقال له الحاج يونس بلهجة ساخرة :

ـ يظهر أنه مشغول !

فصمت محمود لحظة ، ثم سأل الحاج يونس :

ـ ماهي السينما ؟

ـ لا أعرف بالتحقيق ماهي ، فأنا لم أدخلها قط . ولكن ما علاقتك أنت بالسينما ؟ هل في نيتك أن تذهب اليها ؟ ثم ضحك ضحكة قصيرة .

قال له محمود :

ـ لاتسخر مني يا عم . المصيبة أن حميدو أصبح منذ مدة مغرماً بها .

فهز الحاج رأسه هزات متتالية ، ثم قال وهو منصرف الى دكانه :

ـ هذا شيء خطير !

لبث محمود جالساً على الرصيف ، بينما أخذت أشعة الشمس تقترب منه رويداً رويداً ، فأحس بحرارتها تخترق بشرته السوداء ، فتحول عنها ، واضحى في وسط الطريق عرضة لركلات ارجل السابلة ، وانتهره صوت يقول :

ـ اجلس هناك .

فجرر نفسه وابتعد .

« حميدو ملعون ، لقد تأخر في المجيء اليوم ، كما تأخر طوال هذا الاسبوع ، يجب أن نبدأ العمل باكراً ، لقد بدأ الناس يملؤون الشوارع ، آه ، لاشك أنه يغط في نومه ، ان هذا طبيعي ، فقد ذهب مساء البارحة الى السينما ، ولعله لم يرجع الى المنزل قبل منتصف الليل ، أصبح الملعون مغرماً بهـا . يوم الاثنين الماضي دخل السينما مرتين . تركني بعد الظهر هنا ثم عاد فذهب الى السينما في الليل . ان مانكسبه لم يعد يكفينا ثمن الطعام . نصف ليرة للسينما كل يوم ، وأحياناً ليرة .. والانكى من ذلك انه صار يدعو بعض ابناء جيرانه للدخول

على نفقته .. لم يترك لي البارحة قرشاً واحداً ، ولم يشتر لي شيئاً من الطعـام البتة .. ان هذه الحالة التي انتهينا اليها لا تطاق ...

« ليتني ما عرفته ، فمنذ أن بدأنا نعمل معاً لم استطع أن ادخر شيئاً .. بل لم اعـد احصل على القوت .. الملعون ! لست ادري كيف اهتدى الي ، كان ذلك قبيل عيد الاضحى الماضي .. رآني جالساً هنا على عادتي آنذاك .. كنت اجلس طوال النهار قريبـاً من القبو لا أغير مكاني في صيف أو شتـاء ، استعطي المارة . حتى اذا جاء الحاج يونس مساء يفتح باب القبو فـأهبط درجاته الأربع بينما يغلق علي الباب من الخارج حتى صباح اليوم الثاني .

في ذلك اليوم اقترب مني حميدو هـذا الملعون ، وقال لي بلهجة ملؤها الحنان والحب :

ـ ما اسمك ياشاب ؟

قلت له بسرعة :

ـ محمود !

ووقف فترة لا يتكلم ، ثم اقترب مني وجلس الى جـانبي على الارض ، وبعد فترة قرب يده من كتفي وقال :

ـ اسمع يا محمود ، انا اسمي حميدو .

قلت له وقد أوشكت أن أصرخ طالباً النجدة :

ـ وماذا تريد مني ؟

فقال ببطء ، وهو يبتعد قليلاً :

ـ ما الذي يزعجك ، أنا لا اضمر لك أي سوء ، لماذا تخاف ??

فقلت في نفسي ؛ لعله يشبه ذلك الفتى الذي حاول أن يسرق مني شيئاً مما معي ، الا انه لن يستطيع ذلك . اغلقت يدي على ما كان فيها من نقود ، وقلت له :

– ماذا تريد مني ؟

عند ذلك راح حميدو يحدثني بحماسة :

– اسمع يا محمود .

– ماذا ؟

– نستطيع أن نتعاون معاً .

فقلت مستغرباً :

– وكيف نتعاون ؟ ؟

فقال لي بهدوء :

– إنك تجلس ههنا طوال النهار ، أليس كذلك ؟

قلت بضيق :

– نعم .

فضحك قليلاً ثم قال :

– من الخطأ أن تبقى ههنا ؛ فمجال العمل في المدينة أوسع وأعظم .

– وماذا تقصد من ذلك ؟

– إن دخلك مهما كثر فلن يربو ، اذا بقيت جالساً هنا ، على ليرة واحدة في اليوم ، أليس كذلك ؟

فعجبت في سري لهذه الليرة التي لم أحصل عليها في أي يوم ، ولكنني

قلت له مع ذلك :

– نعم ، لا يمكن أن أحصل على أكثر من ليرة .

عند ذاك ربت على كتفي بسرور وقال :

– ستحصل على ليرات كل يوم . إن لك مؤهلات عظيمـــة ، يجب على الانسان آن يكون طموحاً . فعينــاك لا مثيل لها بين عيون جميع عميان المدينة ، لا أستثني منهم أحداً !!

قلت له وقد ضقت به :

– ماذا تريد مني أن أفعل ، إنني مرتاح هنا .

– ولكن هل حاولت أن تقصد شوارع المدينة ??

– كلا !

فقال لي :

– لو أنك حاولت لرأيت عجباً !

– عجباً أو غير عجب ، إنني أعمى يتيم ، ولا أستطيع أن أسير ، وأنا أخاف من العربات والسيارات ، والناس .

فأضاف يقول :

– يجب أن تخاف أيضاً من الحافلات والباصات وسيارات الشحن ، فهذه كلها تسير بسرعة كبيرة وكثيراً ما تدهس المبصرين من الناس .

قلت له وأنا خائف :

– إذن فأنت تريد آن تغرر بي ، انصرف عني !

ولكنه لم ينصرف رغم إلحـــاحي ، بل التفت نحوي وقرب فـــه من أذني يقول :

– هناك ، حيث الشوارع العريضة الواسعة والناس الأثرياء .. والسيدات الانيقات اللواتي يتأففن من منظر الاعمى فيصرفنـــه بربع ليرة أو أكثر .. ليت لك معرفتي في ذلك . .

– انني لا أستطيع أن أبرح مكاني فأنا أخاف ان أموت ، وخير لي أن أبقى هنا ، وأرضى بما يقسمه لي الله .

وانصرف حميدو ...

« ولكنه عاد في اليوم الثاني . . ثم عـــاد في اليوم الثالث وهو يكرر الحديث نفسه حتى حملني على مشاركته وهكذا بدأنا العمل .

قال لي :

– فلنجرب ذلك يوماً واحداً .

ومر بجانب محمود وهو جالس على الرصيف مستغرق في شروده حمـــار يحمل صندوقين ملئا تيناً ، فتوقف الحمار قليلا واقترب من محمود فأحس هذا بأنفاسه وانتبه له ، فأبعده عنه بضربة من يده ، ثم عاد الى شروده .

« ملعون ذلك اليوم الذي بدأنا فيـه شراكتنا . كان يومـــاً مشؤوماً أسود ، صحيح اننا حصلنا على ليرتين وبضعة فرنكات ، لكن بداية المصيبة كانت في ذلك اليوم ، لقد ترك لي المال كله ولم يأخذ منـه إلا أربع فرنكات وقال لي :

– لافرق بيننا !

وعدت في ذلك المساء لانفق كل ما كان معي . عنب وخبز وبوظة وجبن وحلاوة وتين ولمَ لا ؟ لقد كسبت في ذلك اليوم مالم اكن اكسبه في اسبوعين،

وأكلت مالم آكله في شهر وبقي معي رغم ذلك عدة فرنكات ، فقلت في نفسي ان العملية رابحة ..

وهكذا بدأنا .

من عادة حيدو أن يسير بي في الشوارع الكبيرة حيث اصوات السيارات والناس تكاد تصم الآذان ، وهو متأبط ذراعي ، وأنا ممسك بصحني الصغير ، وكلما رأى سيداً أو سيدة ضغط على ذراعي ، فـــانطلق اهدر بالدعاء ، وبالصراخ احياناً :

« من مال الله ، من مال الله ! »

ورفع محمود صوته عالياً حين انتهى الى هذه الجملة وكأنه كان يفعل ذلك بدافع العادة : من مال الله ! من مال الله !

لكن حارس الحي انتهره وهو يهم بالانصراف الى بيته بعد أن انتهت مهمته :

ـ اسكت فليس في الشارع أحد !

فسكت محمود ، ولكنه لم يفتأ يتكلم ...

« ملعون حيدو ، لقد تأخر ، اللئيم لايفي بوعده ، لقد وعدني ان يأتي اليوم باكراً ، لكنه لم يأتِ ، لماذا ؟ أتراه يريد ان يستولي على كل ما نربح ؟! لقد اتفقنا على أن نقسم المال بيننا بالتساوي . ولكنه منذ مـــدة لم يعد يقبل بهذا ، بل صار يأخذ مني ما يشاء من غير أن يترك لي شيئاً . انــه رهيب ، فهو يهددني بالضرب اذا فتحت فمي ملعون ابن ملعون . لقد ضربني منذ يومين على رأسي بقبضته ، قال لي انه رأى ذلك السينما .

ـ قم يا كلب !

وقام محمود خائفاً حين سمع صوت حميدو يرن في اذنيه .

– لقد تأخرت اليوم .

– اخرس . ليس لك ان تحاسبني . ولا يهمك هذا .

– ولكنك وعدتني ..

– اخرس . أليس في نيتك أن تخرس عند الصباح ؟ سترى اليوم مايكون عقابك !

– عقابي ؟ !

– نعم ، لن ادع لك قرشاً واحداً جزاء وقاحتك .

– قل انك تريد ان تستولي على المال كله ، انني اعرف قصدك وأنا لن اذهب معك بعد اليوم .

وجر حميدو الفتى الاعمى جراً وانطلقا يقطعان شوارع المدينة والدموع تكاد تطفر من عيني محمود . وكان محمود كلما تجمع شيء من النقود في صحنه التقطه بسرعه ودسه في جيب قمبازه .

– اعطني مامعك .

– لا ، لن اعطيك شيئاً الآن

– اعطني ! !

– سأعطيك نصف مانربح مساء ، كما كنا اتفقنا .

– الآن !

– لا .

– سأذهب الى السينما ، أنا بحاجة الى نصف ليرة .

فقال محمود وهو يصر باسنانه ويضغط بيده على مامعه :

– مساء .

وتمتم في نفسه : الحسنة لي وحميدو يستولي عليها كلها . لن يكون ذلك بعد اليوم ، هذا ظلم وخيانة ، سأريه . والتفت اليه يقول :

– أنا في غنى عنك الآن ، لقد تعلمت الشوارع كلها ، وأستطيع أن أمشي طوال اليوم فيها .

طافت في ذهن حميدو أشرطة من الصور : البطل الذي يعترض القطار ويشهر مسدسه على السائق فيقف القطار وتفرغ العصابة مافيه . زعيم العصابة الذي يطفيء النور على اعدائه ويبطش بهـــم . والمتمرد الذي يمتطي صهوة جواده ليقتل حاكم الجزيرة ويلقيه في الماء

– اعطني مامعك كله ، وبسرعة !

– ان اعطيك شيئاً البتة بعد الآن !

قطع الفتى الأعمى مع مرشده الطريق العريض ، منتقلين من رصيف الى رصيف ، واوقف حميدو الفتى الاعمى في ركن ما يطـــل على شارع تمر فيه الحافلات الكهربائية .

« اذن فلن يعطيني مامعه ، ولن اذهب كما أشاء الى السينما مع أولاد الحي . ان في نيته أن يحرمني من الطعام والخبز ، سأريه ماسأفعل به . لقد بدأ يفهم فيما أرى . سأتركه في الطريق ، وانظر ماسيحل به . لسوف يعود إلي ضارعاً . وأما ماذا يهمني ، لقد عصرت الليمونة حتى آخر نقطة فيها ، ولكنه لابد ان يعود فيطلب مساعدتي . وعند ذاك سأريه ... كنت اعصره . . وسأظل اعصره الى ان يموت ...

أما محمود فقد تابع طريقه : « لقد صرت اعرف كل الطرقات ، فما علي الا أن أسعى ، لقد تركني حميدو ، وأية قيمة لذلك ؟ انه مبصر وما عليه الا أن يعمل . لو كنت مبصراً لاشتغلت في دكان الحاج يونس ، ان كل ما سأكسبه بعد الآن سيكون لي ، سأدخر قسماً من المال وسأشتري معطفاً للشتاء بمعرفة الحاج يونس . لقد آلمني البرد طوال الشتاء الماضي ، سآكل كثيراً من الخبز ، ماأطيب طعمه في الفم . لقد كان حميدو يضن علي به . اصبحت الاموال كلها لي . لقد تحررت منه . الحياة واسعة . لأول مرة أشعر بان حملاً كبيراً نزل عن ظهري . سأمشي وحدي .. وسأعتمد على اذني .. ان امامي كثيراً من الرزق ينتظرني ...

« وحين أريد ان أعود الى القبو سأجتاز الشارع العريض ، ثم انحرف الى اليمين متلمساً طريقي بيدي ، وبعد ذلك أمضي في الطريق الضيق ، حتى انتهي الى قبو الحاج يونس .

ـ هل اذن المغرب ياعم ؟

ـ منذ مدة يسيرة .

عدّ محمود دراهمه ، كان معه ليرة وفرنكان . سيشتري الخبز والعنب والحلاوة . انحرف الى اليمين ... كانت حافلة صفراء تنحدر في هذا الشارع الضيق ، فصرخ أحد المارة :

ـ انتبه ! انتبه !

لكن محمود لم يدري الى أين يتجه ، فخطا خطوة الى الأمام بسرعة :

ـ آه ! !

وكانت على أرض الشارع جثة مهشمة لفتى صغير أعمى ، وشوهدت يده ملتصقة بعدد من الفرنكات ، أما صحنه فقد طار الى مكان بعيد بعيد ...

على تخوم المدينة

ستقولون لي ، وابتسامة ساخرة ترتسم على افواهكم ، لقد كان الخطأ خطأك ، وتلك المقدمة لايمكن أن تفضي الا الى مثل هذه النتيجة ؛ والا فهل يعقل أن يتخذ الانسان من المقبرة البعيدة الجاثمة على تخوم المدينة ملتقى غرامياً ، ومكاناً يتبادل فيه العشاق الهوى ... ويتطارحون فيه القبل ؟ والمدينة واسعة واسعة، وفيها ألف مكان ومكان ؟ ! وانها لظاهرة مضحكة ولا ريب، أن يعدل المرء عن المتنزهات والمقاهي والمنازل حيث ألف الناس أن

يتواعدوا ويلتقوا اليوم المقابر، هناك حيث لا تجد الا الوحشة والكآبة والموت المقيم .

لاشك في أنكم مصيبون فيا تزعمون، إلا أن لي أنا أيضاً مبرراتي، إذ كيف ترون أن المدينة واسعة ، وهي في نظري ضيقة شديدة الضيق لايكاد الانسان يجرؤ أن يخالف فيها أبسط ماتعارف عليه الناس من قيم ومفاهيم، وهو إن تجرأ على ذلك سلقه الناس بألسنتهم ، وعرض نفسه وسمعته لشائعات قد يكون لها أساس ضئيل في الحقيقة ، ولكنها لاتلبث أن تتخذ من الخيال مطية ، فتجنح الى حيث لايخطر ببال أحد . بل كيف يصح أن نزعـــم أن المدينة واسعة كبيرة ، مادام كل فرد فيها يعرف كل الناس ؟ ولا تقتصر معرفته على وجه الشخص أو اسمه ، بل تتعداه الى كل كبيرة وصغيرة تتعلق به أو بأسرته أو بأجداده ، وهكذا فإن أقل حادث يقيم المدينة ويقعدها . والناس في مدينتي ، كا تعرفون ، يحبون الفضائح ، لابل يعشقونها كا كنت أعشق صديقتي تلك ، ويحومون حولها كا كنت أحوم حول الصديقة ، أفلا تعتقدون اذن ، ان مدينتي ليست واسعة ، بل ليست مدينة على الاطلاق ؟ انها قرية كبيرة وحسب ، لهذا كله أعتقد أن صديقـــتي كانت على صواب في مخاوفها الكثيرة وفزعها الشديد من أن تقع علينا عين ، ولعلكم ادركتم ، للوهلة الاولى ، أن علاقتي بصديقتي لم تكن بالعلاقة السليمة نظراً لهذا الهرب الدائب الذي كنا نقوم به فزعين وجلين من عيون الناس بالعيون الناس في مدينتي ، ماأشداتساعها ونفاذها - وأنتم تذكرون أن آدم نفسه لم يجد حاجة الى ستر عريه الا بعد أن أكل من الثمرة المحرمة ، أليس كذلك ؟

ولا تظنوا اني اهتديت الى هـــذه المقبرة بيسر وسهولة ، ويعلم الله أني

ما اكتشفتها الا بعد عناء وتعب طويلين ، وكان اهتدائي إليها في احدى تلك اللحظات المبدعة التي تومض في فترات نادرة في ذهن الانسان ، فيلتمع ذكاؤه ويتفتق ذهنه عن امور لاتخطر له في الحالة الطبيعية قط . ولكنني أدركت فيما بعد ، أن صديقتي هي التي كانت قد أوحت إلي بهذه الفكرة منذ أسابيع ونحن نتجول حول المدينة بسيارتي الصغيرة ، وراحت الفكرة تدور في ذهني حتى انبجست ذات يوم على شكل سؤال ، إذ قلت لصديقتي :

– هل يضيرك أن ندخل المقبرة لنتجول فيها قليلاً ؟

وتظاهرتْ أول الأمر بالتردد، ثم رأيتها توافق وكأنها تفعل ذلك إكراماً لي ، ومن يدري فلعلها حملت غيري من قبل ، على ولوج هذه المقبرة النائية ؛ فقد شعرت ونحن نسير فيها أنها تعرف مسالكها وطرقاتها معرفة دقيقة ، ويجب أن أعترف بانني شعرت ، لدخولي هذه المقبرة المرة الاولى ، بكثير من الضيق والانقباض ، ولكن ماحيلتي في الامر ، فقد كانت الظروف كلها ضدنا ، ولم نكن نستطيع أن نلجأ الى مكان أمين ، كما قلت لكم آنفاً .

أتقولون لمَ لاتحملها الى منزلك أستر وأفضل ؟ يظهر أنكم لم تصدقوا أن ظروفي صعبة ؟ حسناً . فماذا أفعل بأمي واخوتي الذين لايبرحون المنزل إلا لماماً ، ففي المنزل دائماً أكثر من فرد من أفراد الاسرة . قد يقال يمكن التغلب على هذا فلا بد أن يذهب الجميع ذات يوم لزيارة ما أو الى السينما أو الى أي مكان آخر ، ولكن ماقولكم بالجيران الذين يطلون دائماً من نوافذهم ويرقبون من يذهب او يجيء ، ومن يزور !! لقد قلت لكم ان مدينتنا أشبه شيء بقرية واسعة . فلتصدقوني !

أسمع بينكم من يقول : اذن فاذهب الى منزلها . آه ، لا . لقد بدا عليها غضب عنيف حين ألحت الى هذه الفكرة أمامها ذات يوم ، وهي مصيبة في ذلك كل الاصابة ، حماتها ! والخادمة الشابة التي جاءتهم من القرية لتخدم المنزل ليل نهار ، وأولادها الأربعة !! وزوجها ! آه ، زوجها ذلك الرجل الفارع الطول ، القوي الجسم ، صاحب المحلات التجارية المعروف ! لا ، لا ، إن فكرة الذهاب الى بيتها وحدها ترهبني .. وترهبها معاً .

– ليس عليك الا أن تتركها والسلام .

هذا كلام يسهل قوله ، أما تنفيذه .. حسبكم أن تعلموا أن هذه التجربة هي أولى تجاربي مع المرأة ، أنا الشاب الذي لم تكن له حتى هذا العمر تجارب تذكر في هذا المضار ، بالبطولة الزائفة ! فلست أنا الذي بدأ هذه العلاقة أو انشأها ، بل هي . أجل ولعلها لو لم تحملني اليهـــا حملاً لظللت في قوقعتي لا ابرحها أبد الدهر . كان ذلك في منصرفنـــا من سهرة صاخبة اقيمت في منزل صديق لي ، وكنت قد تعرفت على صديقتي وزوجها في منزل هـــذا الصديق نفسه منذ شهور . وبينَ نحن على عقبة الدار عرضت على الساهرين أن أوصل من يشاء منهم بسيارتي الصغيرة الى منازلهم ، فرفض الجميع دعوتي شاكرين اذا كانت سياراتهم ملء الشارع ، ووجدت السيدة صديقتي تقبل الدعوة ، ولا يجد زوجها مانعاً في ذلك ، فسيارته رهن الاصلاح . كان الليل قد مضى اكثر من نصفه ، والصخب قد ملأ رؤوسنا جميعاً ، وسارعت المرأة ففتحت باب السيارة الأمامي وجلست الى جانبي ، بينما جلس زوجها خلفنا وهو بين نائم ويقظان . وسارت بنا السيارة ببطء . كان الطريق الى منزلها طويلاً معتماً ،

والشوارع هادئة ساكنة – وذاك طبيعي ، ففي مدينتنا ينام معظم الناس في ساعة مبكرة – وأحسست بعد فترة بيدها تضغط على أصابعي وهي تميل عليّ وكأنها تريد أن ترشدني الى الشوارع التي يجب أن اجتازها . ومنذ أن وضعت يدها علي للمرة الاولى أدركت انني على شفير هاوية ، فحاولت أن أتملص منها . بل خيل اليّ انني مخطيء واهم ، الا انها كانت أقوى مني ، ثقوا بذلك ، ولست بحاجة الى أن أشرح لكم ماتلا ذلك ، فهي قصة معروفة ، أليس كذلك ؟ مصادفات قليلة في الشارع ، وبعض اللقاءات في منزل الصديق ، ومخابرات هاتفية . وهكذا .. ان الناس جميعاً يعرفون كيف تتم مثل هذه الامور . ومع ايماني بعبث هذه العلاقة وسوئها ، فأنا متشبث بها متعلق بها شأني شأن صخرة تتدحرج منحدرة من أعالي قمة شاهقة وتزداد سرعتها لحظة بعد لحظة ، فلا هي تستطيع أن تتوقف ولا هي تستطيع الرجوع الى القمة سبيلا .

أأنا أحبها اذن ؟ ذاك شعور غير الحب والهوى فيما أعتقد . انه مزيج من التعلق والشغف والانسحاق والتمرغ في عالم مكون من عينين سوداوين فيهما أعنف معاني الوحشية والقسوة والخطيئة والزنا ؟

لا تسألوني لماذا كانت تعرض عن زوجها وتخونه ، فلست املك لهذا السؤال جواباً . ولست أعتقد أن لها مبرراً أي مبرر – كل ما أعرفه أن الخيانة كانت في دمها ، وانها ان لم تخنه معي فلسوف تخونه مع سواي ، ولم أكن لاضيع مثل تينك العينين السوداوين بأي ثمن . أتقولون انها قذارة واتساخ منك ، ولكن تأملوا أيها الاحباء هذا الهواء الذي نتنفس وحللوه

جيداً أفلا ترون آنذاك أننـا نتنفس القذارة والأوساخ صباح مساء ، وأننا نتغذى بها وهي في كل قطرة من دمائنا ؟.

وحارس المقبرة ؟ ذاك انسان ذكي خبير . فحين ولجنـا المقبرة من بابهـا الحديدي الكبير لمحنـاه من بعيد ، فأقبل علينا بخطا باشة ، أغلب الظن أنه يعرف صديقتي لم ينبس الحارس بكلمة ،وغمزتني الصديقة ففهمت فوراً ماتعني. مد ت يدي ودسست في جيبه ورقة مالية ، فاتضحت عند ذاك كل الأمور . قلت له بهدوء :

ـ سنقوم بجولة في أرجاء المكان .

فهز رأسه موافقاً ، روجهه الهرم الصلب لاترتسم على غضونه أية تعابير. ولكنه حين لمح ابنته الصغيرة تقترب منا ، انتهرها بسرعة :

ـ ادخلي الى البيت :

فأذعنت الفتاة بسرعة ثم أومأ الينا وهو يشير الى ركن قصي في آخر المقبرة قريب من سورها العالي ، وقال :

ـ هناك اشجار كثيرة ومقاعد حملناهامنذ زمن ، يمكنكما أنتجلساعليها.

كانت صديقتي قد سبقتني الى ذلك المكان بينما كنت احادث الحارس . ألم أقل لكم انها تعرف المكان معرفة دقيقة ؟

وتوالت زياراتنا

كانت زيارات مستمرة ، في اوقـات مختلفة من النهار ، وفق فراغنـا وامكان التقائنا . كان الهاتف صلتي الوحيدة بصديقتي في مخـابرات قصيرة موجزة كأنها برقيات . « اليوم في الساعة العاشرة » ـ « لااستطيع اليوم ».

« غداً اذن في الساعة الثالثة بعد الظهر » « حسن » وهكذا ..

وكنا اما بلغنا المقبرة أعمد الى قرع بوق السيارة ، فيطل الحارس مسرعاً ليقول لي كلمة أو كلمتين ، وكأنه قاض يصدر حكماً فاصلاً « اليوم عندنا جنازة » و« غداً قبل الظهر » ايضاً فأفهم مايريد واستدير بسيارتي مسرعاً لأضع صديقتي قريباً من أحد مواقف الباصات ، وانطلق الى شؤوني . وكان صوته يأتيني ، احياناً اخرى ، « تفضل » فأفهم أن الجو خال وأن الجلوس ميسور . يا لكلمات هذا الرجل ! أيكون صمت المقبرة قد علمه أن يلتزم الصمت ، وأن يقتصد في القول اذا ما اضطر الى الكلام ؟! أم كانت حاجته الى المال قد جعلته ذكياً ، حاد الذكاء ؟

ولم ألبث بعد زيارة أو زيارتين أن الفت المكان ولم أعد أشعر بالانقباض الذي شعرت به للوهلة الأولى ، وأصبحت أجده كأي مكان آخر – ستقولون لي : أنت وصديقتك مصابان بمرض نفسي ، ربما صح ذلك ، ولكن ألم يدر بخلدكم يوماً أن معظم الناس مرضى وان الارض مستشفى كبير لايشفى الناس من امراضهم الا الموت ؟

ظللنا على هذه الحال زمناً ... واعذروني ان كنت لا أستطيع ان احدده لكم . فقد كنت غائصاً في اللذة حتى قمة رأسي . ومع انني كنت أجد دائماً في هذه الملاقه شيئاً من المرارة ، الا انني كنت كعطش أمام ماء مالح كلما ازداد شرباً ازداد الى الماء عطشه .

الى ان كان يوم ... يوم بعيد ، اذ تلته أيام طويلة وكثيرة ، وقريب كأنه هذه اللحظة التي مرت بنا الآن .

كنت جالساً الى جانب صديقتي في الظل ، والمكان خال هادىء ، ونسمات الصبح تحرك أوراق الأشجار بين الفينة والفينة ، وكانت احدى يدي توسد ظهرها ، ظهرها الرحب ، والزمان يسير دون أن نشعر به ، وفجـأة سمعت صوتاً صغيراً خافتاً كان رجل مسن يحفر في طرف المقبرة غير بعيد عنـا ، حفرة صغيرة . فلم ابال به أول الأمر ، ولكن سرعان ماحدث بي رغبة متطفلة في أن أعرف ماذا يفعل . لمحت بالقرب منه سلة صفراء موضوعة على الأرض . وحين انتهى من حفر تجويف صغير جداً في الأرض مد يده الى السلة فسحب شيئا منها وألقى به بهدوء الى الحفرة فسُمع له ارتطام .

في تلك اللحظة ذاتها كان جسمي يرتطم بجسم صديقتي وسمعت الصوتين في وقت معاً . الى أين كانت صديقتي تنظر في هذه اللحظة ؟ أعتقد الآن أنها كانت ترى ما أرى لأنها قالت لي فيما بعد « لعله أب أوجد جاء يدفن حفيداً له مات في أول طفولته ولم ير حاجة لاقامة مراسيم لدفن مثل هـذا الطفل الصغير » . وسرت رعدة في اوصالي ، وشعرت انها هي أيضاً ترتجف .

أتقولون ماذا كنتما تفعلان ؟ ان الجواب ليسير . كنا نفجر في جسدينا وحواسنا ينابيع اللذة ، وكنـا كأنما قد استحلنا الى جسد واحد يتحرك كدودة بيضاء كبيرة تدب . وجاء الصوت البعيد ، صوت ارتطام الجسد بالتراب ، فأوقظ في شيئاً لا أعرفه ، توقف فمي عن طبع قبلة كان يهم بها ، وظلت القبلة معلقة بالهواء ، وتراخت أصابعي التي كانت تمسك بالصديقة . واختلطت في أنفي رائحة التراب الذي نثرته ريح خفيفة ، برائحـة عطر صديقتي .

عند ذاك شعرت بثقل جسدها علي فابتعدت عنها قليلاً ، وعادت هي الى جلستها العادية تسترد أنفاسها . كانت تفكر صامتة . وظللنا هكذا مدة لست ادري كم امتدت ، بم كانت تفكر ؟ لا تحاولوا ان تعرفوا ذلك لأنها لم تنبس بكلمة منذ ذلك الحين ولم يتح لي أن اسمع صوتها . أعتقد ان شيئاً قد استيقظ دفعة واحدة في نفسينا معاً .

حين فتحت باب السيارة هزت رأسها مودعة بحركة سريعة ، وسارت في طريقها . أتقولون إن كل الطرق تؤدي الى المقبرة . لا أدري . كل ما أعرفه انني لم احاول قط ان أتصل بها ، ثقوا بذلك ، وهي كذلك لم تخابرني منذ ذلك اليوم البعيد القريب : أتراها نسيتني ؟ لست ادري ، ولا أكتمكم انني شعرت منذ ذلك الحين بألم حاد لم اعرف له معنى . أكان ندماً مني أم شوقاً اليها ، أم ضيقاً بأيامنا ، ام محبة وعطفاً على جسد طفل صغير مات من غير خطيئة ؟ ؟ وكثيراً ماتساءلت في نفسي أتراها عادت الى تلك الزاوية في المقبرة لتزورها وحيدة او مع عشيق لها جديد . ولكن تساؤلي سيظل دائماً من غير جواب .

أتعتقدون حقاً بعد ذلك كله ان الخطأ كان خطئي . وأن تلك المقدمة لا يمكن ان تؤدي الا الى مثل هذه النتيجة ؟

حادثة تافهة

أطال الله عمركم ، أيها القراء الأعزاء ، ومد في أجلكم ، فعلى حياتكم نعلق أكبر الآمال وأعرض الأماني . ألستم اولئك الذين يجلسون في المقاهي وينشرون أمامهم صفحات المجلات والجرائد ويعالجون مشاكل المجتمع والحياة، فتعلو أصواتكم ويحتدم نقاشكم ؟؟ انني لأعرفكم جيداً ، فطالما رأيتكم في ذهابي وايابي الى الفندق الذي أعمل كاتباً فيه ! ويعلم الله أني أحسدكم وأغار

منكم ، فأنتم تفقهون كل شيء ، وتعيشون أعمق المشاكل ، كما قال لي واحد منكم وفد على فندقي ذات يوم ، وتعانون أعمق التجارب ، وان مشكلة الحياة والموت تحتل حيزاً هاماً من تفكيركم الى جانب اهتمامكم بمشاكل الحياة الاخرى كالعدالة والتغذية والفقر والديموقراطية والقومية الى آخر هذه السلسلة من الكلمات التي أتحسر حزناً اني لا أعرف بقية منظومتها ...

أرأيتم ؟ ؟ انني لأهتم بكم وأتابع نشاطكم ، ولست أفرح لشيء فرحي لحلول بعض منكم في فندقنا المتواضع ، فأنا أعرف أنكم تزهدون في الأبهة والفخامة ، وتعيشون للفكر ومشاكله ، وان أسعد اللحظات هي تلك التي أقضيها في غرفكم بعد ان تغادروا الفندق لتؤموا الجامعة ، ومعظم زبائننا من الجامعيين ، واني لأذكر ذلك اليوم الذي دخلت فيه احدى الغرف ، لاشرف مع الخادم على تنظيفها فوجدت فيها ، واعجباه ، تلة من الكتب بين عربية وأجنبية ، ولقد تصفحتها فلم ترق لي لأنها فوق مداركي ، ولكنني لحظت أنها تدور كلها حول الموت ومشكلاته مع بعض الكتب التي تبحث فيما يسمى بالعدالة الاجتماعية ، فعلمت آنذاك أن الموت مشكلة بالنسبة اليكم ، وانه يحتل حيزاً هاماً من تفكيركم وأصارحكم القول باني لا افهم في هذا الموضوع شيئاً ، فأنا لم أمت ، واقاربي واحبائي ما يزالون والحمد لله على قيد الحياة ، وأنتم كذلك ، اطال الله عمركم ، احياء ، فيما اعتقد مادمت أراكم تقرؤون وتناقشون وتشردون ...

أأنا أحدثكم عن الموت ؟ كلا ، فليس في استطاعتي ان افعل ذلك . سأروي لكم حادثة تافهة ، حدثت أمس في سلم البناية التي يقع فندقنا في

الطابق الثاني منها ؛ ويقيني أنكم تعرفون أشباه هذه الحادثة ، او هكذا يخيل الي ، ومع ذلك فأي بأس في ان نسرد الاشياء التي تؤلمنا ونعيد سردها؟! ولقد قرأتم انتم كثيراً عن الموت ، فلا ضير في ان تستمعوا الي ، دقائق من وقتكم ، فإن لم تجدوا فيما سأرويه لكم فائدة او مسرة فلن تكون خسارتكم كبيرة ، أليس كذلك ؟ اسمعوا اذن ...

في الطابق الاول من البناية التي يقع فيها فندقنا ، عيادة طبيب مشهور ، عرف بالمهارة والذكاء والمقدرة على معالجة الامراض الى جانب معاملته للمرضى معاملة فيها كثير من اللطف والمحبة والتساهل ، ونتج عن هذا ان مدخل سلم البناية مزدحم دائماً بالناس ، وجلهم من القرويين والغرباء ، يفدون في الصباح الباكر ، فيحتلون صالة العيادة حتى اذا لم يبق فيها متسع ، انتشروا امام الباب وملؤوا المدخل ، حتى ليكاد يفيض بهم بعض الأيام . ولست أريد ان تأخذوا فكرة خاطئة عن عدد المرضى في بلادنا من خلال حديثي عن هذا الطبيب فهو كما قلت لكم مشهور جداً وزبائنه كثيرون ، ولا شك في ان معظم الوافدين على العيادة ليسوا بمرضى وانما جاؤوا يرافقون قريباً لهم مريضاً أو أخاً او صديقاً ...

لم يسترع المشهد المألوف انتباهي وأنا أصعد درج السلم في الصباح ، كان عدد كبير من المرضى أمام العيادة ، فصعدت الى الفندق ، على عادتي ، لأقوم بما اعتدت أن أقوم به من عمل ، وعند الظهر لحظت ، وأنا عائد الى منزلي أن العيادة مقفرة وبابها موصد ، وأمام الباب كانت تضجع فتاة قروية ترتدي ثياباً حريرية ملونة ، صفراء اللون نحيلة الوجه ترتجف من الحمى ، وبالقرب منها

كان يجلس شاب قدرت أنه زوجها أو أخوها . وعندما اقتربت منها ، فتح باب العيادة فجأة وخرجت منه الممرضة الشابة ، واذ لمحت الشخصين انتهرتهما بصوت حاد وهي تقول :

– ألم أقل لكما أن تذهبا ، لقد انصرف جميع المرضى . قلت لكما أن الطبيب مسافر .. مسافر ، ألا تفهمان ؟؟

نظر الرجل اليها مذعوراً ؟ كان شاباً طويل القامة قوي البنيـة ، ثم لم يلبث أن خفض بصره ، وقال بصوت فيه كثير من الخضوع والألم :

– سننتظر !!

– ولكنه لن يعود ، لن يعود اليوم ولا غداً ، لقد سافر الى الخارج .

وبدا أن الرجل لم يصدق ماتقوله ، فلم تبدر منه أية حركة ولا فكر بالذهاب . عند ذاك اغلقت الممرضة بعنف ومضت مسرعة وكأنها يئست من مقدرة هذا الرجل على الفهم ، وسمعتها تتمتم ، حين انتهت الى مدخل البناية :

– فليبقيا !!

حين عدت الى الفندق حوالي الساعة الرابعة ، كان باب العيادة مغلقاً كما رأيته وقت الظهر ، وكان الرجل قد ذهب بينما بقيت الفتاة في ضجعتها تلك لم تتحرك عن مكانها خطوة واحدة ، فقلت في نفسي لعله مضى يأتيها بشيء تأكله أو شراب تشربه .

والحق ان شيئاً غامضاً دفعني الى الاهتمام بهذين القرويين الغريبين ورحت افكر فيهما . ولكنني لم ألبث أن نسيتهما وأنا في غمرة عملي ، بـين مخابرة في الهاتف ، وتسجيل لأسماء الوافـــدين ، وتلبية طلبات الزبائن والإيماز الى

خادمي الفندق ببعض الاعمال،من ايقاد الحمام ، الى شراء صابون ، الى ارسال الغسيل للتنظيف ... وبعد أكثر من ساعة ، تذكرت القرويين فجأة،فتركت الفندق لحظة ، وهبطت الى الطابق الأول لأرى ماحل بهما ، فاذا المرأة ممددة في مكانها لم تتحرك ، والرجل غائب . ولست اعرف حقيقـــة المشاعر التي انتابتني آنذاك ، فقد كان في داخلي احساس بحقيقـة كنت أخشى أن أتلفظ بها ، كأن مجرد ذكري للكلمة سيجعل من ذاك الشعور أمراً محتماً . وهرولت عائداً من حيث أتيت.ماذا كان بي أهو الخوف؟ أم الاشمئزاز ؟ أم الشفقة أم...

وناديت الخادم بصوت قاس كأن ذلك يخفف عني ضيقي ، وطلبت إليه أن يستطلع أمر الفتاة النائمة على سلم البناية ، فانطلق بسرعة وعاد بعد ثانية واحدة ، ليقول لي :

– ان الفتاة ميتة !

قلت له بوجل :

– أمتأكد أنت من ذلك ؟

– لقد شبعت موتاً ! والناس المتجمعون حولها كلهم قالوا ذلك

فقلت له :

– وأين الرجل ، لقد رأيت معها رجلاً عند الظهر ؟

قال لي :

– ليس معها أحد ، وليس من يعرفها أو يعرف قريباً لها .

وقلت في نفسي : يظهر أن الرجل قد هرب حين علم أنها ماتت وتذكرت انني لم أره ، حين مررت بجانبها بعد الظهر – هل كانت ميتة أم كانت ماتزال

تنازع أنفاسها آنذاك ؟ لست أدري ، ولكني كنت أريد أن اؤكد لنفسي لسبب لا اعرفه أنها لم تكن قد ماتت حين مررت بجانبها ...

وجلست في الفندق لا أعرف ماذا سأفعل .

بعد فترة وجيزة بدأت تعلو تعليقات الزبائن واقتراحاتهم ، وبدأ يظهر تأففهم واستياؤهم . كانوا يقولون لي :

ـ هذا لايجوز !

ـ هذا يضر بالفندق !

ـ يجب أن ترفعوا الميتة عن الأرض ، حرام !

ـ استدعوا الشرطة !

ـ استدعوا الاسعاف ! !

واسقط في يدي فلم اكن أعرف ماذا ينبغي أن أفعل ، وظللت عاجزاً عن القيام بأي عمل انتظر مجيء صاحب الفندق . وجاء « المعلم » اخيراً ، فانتهرني بلهجته العنيفة :

ـ اتصل بالنجدة يامغفل !

نزعت القفل الصغير عن الهاتف وقدمت له السماعة

ـ اليك الهاتف ، اتصل بمن تشاء !

تناول السماعة بكل حماسة ، وكأنه يريد أن يريني قوته وسلطانه أمام عجزي وخوفي .

واتصل بشرطة النجدة ... ولم يلبث أن وضع السماعة وقال لي :

ـ لا علاقة للشرطة بالأمر ! يجب ان نتصل بأقربائها ليأتوا فيأخذوها .

قلت له :

– كان قريبها معها عند الصباح ولكنني لم اره طوال بعد الظهر ، يخيل اليّ انه هرب .

واتصل بالاسعاف ... ثم وضع السماعة من جديد وهو يتمتم :

– الحقيقة ان هذه الميتة مشكلة ! قال الاسعاف ان لاعلاقــة له بالميتة ، لقد قالوا لي اتصل بالشرطة ..

وعاد فاتصل بالشرطة ... ووعدوه أن يتصلوا بالاسعاف ، ثم عادفاتصل بالاسعاف من جديد طالباً إليهم التوسط لدى الشرطة . ومرت فـترة كانت أطول فترة شعرت بدقائقها في حياتي .. وكان الناس يتجمعون ويتزاحمــون أمام باب البناية ، وكان عددهم يربو كثيراً على عدد المرضى الذين اعتدنا أن نراهم متجمعين أمام عيادة الطبيب

وكان « المعلم » يرفــع السماعة بشكل آلي بين لحظة واخرى فيدير القرص ويتفوه بـكلمة أو كلمتين ثم لايلبث أن يعيد السماعة الى مكانها ، ليرفعها بعد لحظة من جديد ...

وأخيراً رأيته يجلس وقد هده الاعياء والبرم ، وملأ العرق وجهه ويديه فأخرج منديله من جيبه ومسح العرق عن جبهته ووجهه ، وأطرق قليلاً ثم قال لي :

– الحقيقة ان هذه مشكلة !

وحرك يديه دلالة على الاستسلام .

– ليس هناك الا حل واحد .

وتطلع في وجهي بكثير من الضيق وأضاف :

- سنحملها نحن الى الشرطة خشية أن تنتن الجثة وتتفسخ هنا .

وأشار باصبعه الى أسفل ، كأن الميتة على بعد خطوة منه .

استدعى الخادمين معاً وامرهما أن يحضرا سيارة ويحملا الميتة الى مخفر الشرطة .. ثم قدم لها ليرتين وهو يقول :

- حاولا أن تستأجرا سيارة بليرة واحدة ، والا فادفعا الليرتين ولننته من هذا المأزق !

قال هذا كله بصوت قاس حاد كي يقطع على الخادمين أي سبيل للتردد أو الهرب .

ومضى الخادمان ... فتنفس المعلم الصعداء واخرج منديله وراح يمسح وجهه بهدوء ، كمن تخلص من عبء ثقيل ينوء به .

ولكن الخادمين عادا بعد عشر دقائق يلهثان :

- لقد رفض السائقون أن يحملوا الميتة .

- وهل قلتما لهم أنها ميتة أيها الحيوانات !

- لا والله ، كان الجميع يدركون بسرعة أنها ميتة فيلوذون بالفرار .

فحملق فيهما غاضباً :

- وماذا فعلتما أيها الخائبان ؟

قال واحد منهم بصوت مخنوق :

- لقد قبل أحد السائقين أن ينقلها لقاء خمس وعشرين ليرة .

فانتصب المعلم فجأة كأنه نابض آلي وصرخ بأعلى صوته :

ـ مجنون ! وماذنبي أنا لأدفعها ! هيا أيها الخائبان ! لابد أن نجد حلاً ، هيا اتبعاني .

مضى الثلاثة مسرعين ، وهرولت الى احدى النوافذ المطلة على الشارع لأرى مايحدث ، ولم يطل بي الانتظار حتى رأيت « المعلم » قد استوقف رجلاً كهلاً يجر وراءه حماره وراح يساومه .

كان الرجل خبيراً بمثل هذه الأمور فيما يظهر ، فادرك أن الحمل الذي يطلبون اليه نقله غريب ، فطلب منهم ثلاث ليرات اجرة له وهو يقول :

ـ ليس في المدينة غيري لمثل هذا العمل ، والله يفتح عليّ بين حين وآخر بمثل هذه الرزقة ، هاتوا الليرات الثلاث وتوكلوا على الله !

ولكن المعلم كان يصر أن يدفع ليرتين فقط . وقبل الرجل الليرتين أخيراً وتقدم من باب البناية بعد أن قرّب الحمار من المدخل ، وساعده الخادمان على حمل الجثة ووضعها فوق ظهر الحمار ، كان رأسها وذراعاها في طرف ورجلاها في طرف آخر . ومضوا جميعاً في شبه موكب ، وأنا أتابعهم بنظري حتى اختفوا في أحد المنعطفات .

عادوا بعد برهة وعلائم الاعياء بادية عليهم جميعاً . جلس « المعلم » ممتقع الوجه ، وطلب الى الخادم ان يقدم قهوة للجميع ، ثم التفت يقول :

ـ لقد سلمناها للشرطة ، أطال الله عمركم جميعاً .

لم يجبه أحد بكلمة ، ولم يعلق أحد أي تعليق ، كان الجميع مطرقين . صامتين ... وبعد فترة مضى كل الى عمله ، وعادت الامور سيرتها الاولى .

إلا أن صورة الفتاة المحملة على ظهر الحمار لم تفارق مخيلتي منذ ذلك الحين .

مارأيكم أيها القراء الاعزاء ، أن تتذكروا هذا المشهد وتتخيلوه إمّا أدرتم في المقهى ، رحى النقاش حول معنى الحياة والموت وكرامة الانسان ؟ أم أنكم ترون في هذا كله حادثة تافهة لاقيمة لها ، ولا تستحق أن تولوها جانباً من اهتماماتكم الجدية ؟؟

الى أين ؟

(١)

٧ تموز ١٩٥٢

كان نعيم يسير في طريق ضيقة ملتوية ، تقوم على جانبيها بيوت قديمة خشبية الجدران مدهونة بدهان فاتح اللون . كان يسير متباطئاً وهو ينظر الى هذه البيوت يريد أن يتعرف البيت الذي يقصده ! فهو لم يره من قبل ،

ولكن يُسرى رسمت له مخططه بدقة ، وواعدتــه أن تنتظره من خصاص النافذة الخشبية .

ومشى طويلا كان الطريق يضيق كلما أوغل فيه ؛ وكان يلمح بـين الفينة والفينة أحد الابواب يفتح فيبرز منه وجه امرأة مغطى ، ثم لايلبث الرأس أن يرتد بسرعة .

لقد ترك أعماله في « الدائرة » وتذرع لرئيسها بعذر طارىء ، ومضى في طرقات المدينة حتى انتهى آخر الأمر الى هذا الحي الذي لم تطأه قدماه قط ، مع انه يقيم في هذه المدينة الساحلية منذ ثلاث سنوات .

كان هدير البحر الهائج يصل الى مسامعه وهو يسير في طريقه هـذا ، فالبحر لم يهدأ طوال اليومين الأخيرين . وأخرج منديله ليمسح العرق المتصبب منه بغزارة ، وشعر بالحر تشتد وطأته عليه بعد هذا المسير الطويل .

ماذا عسى أن يفيد من هذه الزيارة؟أتراه أخطأ أم أصاب إذ قبل الدعوة التي وجهتها إليه عينا يسرى النهمتان ؟؟

وخطر له أن يعود ادراجه ليقبع في عقـــر مكتبه ، يستمتع برطوبة الغرفة ، وهواء المروحة ، ولكنه أحس كأن شيئاً يجذبه الى متابعة المسير والوصول الى حيث صمم الذهاب ، فليس في ذلك كبير بأس . وهو الى ذلك غريب ، لايكاد يعرفه احد في هذا الحي ، بل ان معارفـــه في المدينة كلها لايكاد عددهم يتجاوز اصابع اليدين .

وأحس باللزوجة تميس في جسمه ، حتى كأن جسمه كله استحـال الى قطعة لزجة . أتكون يسرى في انتظاره الآن ؟ لم يتردد في الجزم بذلك .

ولكن أيكون زوجها غائباً ، وابنها نائماً كما قالت له ؟ سيكون زوجها ، كما أكدت له ، بعيداً ؛ فهو يعمل طوال يومه في المعمل ولا يعود الا في المساء . اما ابنها ! ابنها الصغير الذي لا يفتأ يبكي ويئن فانه لا يحتمل سماع صوته وأنينه ! يا الهي ، لماذا يبكي الاطفال ، وممَّ يتضايقون ؟

ولكنه سرعان ماتساءل لماذا يبكي هو ، بعض الأحيان ، في غرفته ، وما سبب ضيقه ؟ هذا الضيق الذي يأخذ بخناقه عصر كل يوم اذ يخلد الى نفسه فيجد ذاته مسجوناً في سجن لا يراه ، ولكن يحس به ، وما اكثر ما حاول الهروب منه الا ان جدران هذا السجن غير المرئية ما تزال تضيق كلما حاول الافلات من أسرها لقد اراد ان يغرق ضيقه بالمطالعة ، فانكب عليها وراح يلتهم كتب المكتبة الوطنية واحداً اثر واحد ، الا انه اكتشف بعد سنتين انه بحاجة الى الافلات من ربقة هذا السجن الجديد ، فأدرك ان المطالعة كانت له في اول الامر مخدراً لذيذاً انساه ضيقه وكآبته ، الا انها لم تعد كذلك بعد حين . كان شأنه في هذا شأن من يدمن على مخدر ثم لا يلبث ان يعتاد عليه ، فلا يشعر بتأثيره بعد ردح من الزمن .

وهرب من نفسه الى الصلاة ، بيد أنه لم يستطع ان يجد فيها ما كان يبحث عنه ، لأن الله كان بعيداً عنه ، وسرعان ما كشفت له الصلاة عن رتابة كان يضيق بها ، ضيقه بتكتكة ساعة وضعت الى جانب اذنه في الليل ، لقد سر بما في الصلاة من تراتيل وانغام وبخور ، الا انه ألف هذه التراتيل والأنغام والبخور ؛ وشيئاً فشيئاً راح يتلمس سبيلَ الهرب منها لأنها اصبحت جزءاً مما يسميه عالم الكآبة وعالم الكآبة هذا ، يشمل كل شيء يعرفه نعيم وكل شيء

بالفه ، وكل شيء يعتاد عليه فيصبح جزءاً من جدار سجنه الذي يحس به ولا يراه . وقال في نفسه :

– ما اطول هذا الحي .

وأخرج من جيبه علبة الدخان التي رسمت له يسرى على ظهرها مخطط الحي ، فرأى انه يسير في الاتجاه الصحيح وانه قطع شوطاً كبيراً من الطريق ، ولم يبق امامه غير امتار قليلة ، وينحرف بعدها الى اليمين ليرى الدار ذات النوافذ الزرق في الطابق الأرضي .

ورأى نفسه يردد احد الألحان التي يحفظها . كان من عادته ان يترنم بلحن منها كلما وجد نفسه في موقف خاص مضطرب ، في صباح ايام الامتحانات ، وفي ايام العمل العصيبة ، وفي ساعات ضيقه . كان قد التجأ الى الموسيقى فيما التجأ اليه ، وانغمر في جوها شهوراً طويلة ، والحق ان الموسيقى شغلت نفسه وصرفته عن ضيقه اطول وقت ممكن . كان يشتري مما يدخره قطعاً من الموسيقى الكلاسيكية ، ثم يجلس في غرفته يستمع اليها ، ولكنه ما ان يحفظ اللحن ويصبح قادراً على ترداده ، حتى يزهد فيه ويميل الى غيره ، والآثار الكلاسيكية كثيرة ومتنوعة ولذلك فقد قضى معها وقتاً طويلاً كان ينسى فيه الزمن والضيق ، ويشعر بنوع من الخدر لذيذ ، ولكنه كان يشعر في الوقت نفسه ان الانغام بعيدة عنه ، وانه يجري وراءها فلا يكاد يمسك بها . فهو كطفل صغير يريد ان يسابق طائرة مرت فوق رأسه ، ولم تترك في نفسه الا أثراً هو مزيج من الاعجاب والدهشة والحسرة والضيق .

كان عجزه عن تحقيق مايريد ، وجهله لما يريد ، يزيدان ضيقه يوماً بعد

يوم ، ومرت به فترة ، غلف فيها الاسطوانات ووضعها في احد الادراج ، ولم يبق له منها سوى هذه الانغام التي يرددها بين الحين والآخر .

وانتهى آخر الامر الى البيت ، كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة ، وتعرف البيت بسرعة ، فقد لمح من خلال النافذة عيني يسرى النهمتين الشرهتين ، المفعمتين شهوة واضطراماً ترقبانه ، واستدارت العينان ، وفتح الباب بسرعة وأطبق بسرعة .

(٢)

١٠ آب ١٩٤٥

كانت أمه قد اتخذت لها الخياطة مهنة تعيش منها بعد موت زوجها ، فأبوه الذي قضى في عنفوان شبابه لم يخلف الا تعويضاً يسيراً نفد بعد سنة وبعض السنة ، فاضطرت أمه ان تلجأ الى هذا العمل . فنعيم في الخامسة عشرة ، واخته ليلى في التاسعة وليس من مساعد يستطيع ان يمد لها يد العون .

وفعلاً فقد خصت لهذا الغرض احدى غرف الدار الصغيرة التي كان زوجها قد ورثها عن أمه ، فوضعت في صدر الغرفة مرآة كبيرة ، ونقلت الى الغرفة هذه بعض الأثاث وآلة الخياطة التي اشترتها بعد زواجها ، ولم تقدر قط انها ستعيش من ثقب ابرتها . كانت خلال هذين الشهرين قد خاطت بعض الأثواب لجارتها وصديقاتها ، وراحت تقوم لها بعض سمعة في المنطقة التي تسكن فيها ، وأخذ العمل يزداد شيئاً فشيئاً ، وآنذاك وجدت انها بحاجة الى عاملة نشيطة تساعدها في عملها وتأخذ عنها القيام ببعض الامور الثانوية .

واستطاعت بعد لأي أن تعثر على فتاة مجدة كان يريد لها أهلها أن تتمرس بالخياطة ، فرحبت أم نعيم بقبولها عندها ، ووعدتها بأجر اسبوعي زهيد تشجيعاً لها ، واطمأن الأهل المحافظون الى هـذا البيت الهادىء الخالي من الرجال ، وسار كل شيء سيرته الطبيعية . وأصبحت يسرى تأتي يومياً الى منزل الخياطة . كانت اخته الصغيرة تحل طوال الصيف ضيفة على بيت خالتها تلعب مع أولادها الصغار ، وكان هو يمضي اوقات الصيف بالمطالعة في المكتبة الوطنية ، وكان يسترق ، في ذهابه وايابه ، بعض نظرات الى يسرى ، واصبح بعد حين يبادلها كلمات قصيرة سريعة ثم غدا يأنيها ببعض الاخبار ويروي لها شيئاً من القصص التي يقرأ . وركنت إليـه يسرى ، وأصبح نعيم يجذب قليلا عينيها .

في هذا اليوم كان العمل كثيراً فطلبت الأم الى معاونتها أن تظل عندها تتناول طعام الغداء معها اقتصاداً في الوقت وتجنباً لحـر الطريق الشديد والقيلولة بعد الغداء ، فالعمل يجب أن ينجز مساء .

ولم تنتظر الأم موافقة يسرى بل سارعت الى المطبخ تعد الطعام ، ومن ثمّ نزلت الى غرفة الطعام التي تقوم في قبو تشع فيـه رطوبة مستعذبة في الصيف ، ولمّا انتهت من اعـداد كل شيء نادت من القبو :

— يسرى ، نعيم ، هيا انزلا !

وانتظر نعيم أن تقوم يسرى ، ولكنها لم تبد حراكا ، فوقف أمام الكوة وخاطب امه :

— ان يسرى لم تتحرك !

– انزلها بسرعة لا داعي للخجل ، انني جائعة وسأبـدأ بتناول الطعام قبل أن يبرد .

وقفز نعيم الى غرفة الخياطة ، كانت يسرى منكبة على عملها . ليس يدري لماذا أحس باضطراب مفاجيء ، وبارتجاف في يديه إذ وجد نفسه وجهاً لوجه أمام يسرى .

– هيـــا .

– ولكنني لست جائعة .

– لقد طلبت إلي أمي أن أحملك على النزول .

– حاول ان استطعت .

ومد يده فوضعها على يدها ، كانت تلك هي المرة الاولى التي يلمس فيها يد فتاة . فأحس بحرارة عذبة ؛ لم تضطرب يسرى ولم تحاول أن تنزع يدها منه ، وإذ وثق من ذلك مد يده الثانية ، وحاول بكلتا يديه أن يشدها ، لكنها ثبتت في مكانها ، وكأنما أعجبتها محاولة نعيم هذه .

ومال الى أذنها يقول :

– دعي العمل وانهضي .

فأجابه صوت مرتج فيه بحة متوترة :

– لقد تركت العمل وسأنهض بعد قليل ؛ هل أنت مستعجل ? !

اضطربت الكلمات في ذهنه أول الأمر ، ثم فهم قصدها ، وظل حانياً عليها ، يختلس النظر الى صدرها الواسع الأسمر ، واذ رفعت عينيها ورأت الى ماينظر ، شدت بيدها على يديـه وارتفعت بها شيئاً فشيئاً حتى لامسته

صدرها ، واستنشق وهو مائل إليها ، رائحة خفيفة باهتة تنبعث من شعرها ، فقرب منه شفتيه ، واذ طبع عليه قبلة ! ضحكت يسرى وتمتمت :

ـ لاتؤخذ القبلة من الرأس .

بعد لحظات كان الاثنان ينزلان معاً درج القبو ليتناولا طعام الغداء ، وقد اضطرم وجهاهما بعد الاضطرام .

ومنذ هذا الحين ، راح نعيم يقلل ، وسعه ، من زياراته للمكتبة الوطنية ويستعيض عنها بالجلوس قريباً من النافذة يتطلع الى يسرى بعينين عارمتين ، وقد وضع قدمه في عالم لاعهد به ، وكان كلما أكثر من القبل ، شعر بمزيد من الحاجة إليها ، فشأنه شأن عطش ينهل من ماء بحر كلما شرب منه ازداد عطشاً على عطش !

(٣)

٢٨ نيسان ١٩٤٤

كانت الحصة الأولى من كل يوم خميس خاصة بدرس الديانة . فبعد صلاة الصبح اليومية الاجبارية خرج الطلاب الى باحة المدرسة يلعبون . أما نعيم فلم يكن قد نزل الى الباحة لأنه موكل بالاهتمام بالمعبد وترتيب الهيكل واطفاء الشموع بعد انتهاء الصلاة . لقد وقع الاختيار عليه منذ سنوات للقيام بهذا العمل ، وليس من يدري علة هذا الاختيار ، فقد يكون مرده الى هدوئه ودقته ، أو النزعة الدينية القوية المتأصلة في نفسه ، تلك النزعة التي تغذيها هذه الصلوات المستمرة ، وتمضيته لأكبر قدر من وقته في المعابد ، واهتمامه بالصلوات

جيماً ؛ بينما كان رفاقه يهربون من ذلك كله ، وينامون في الصلاة ، أو تشرد منهم الأذهان في لعبة من اللعب ، أو يستغلون شرود المراقب ليتموا همسهم في سلسلة أحاديثهم التي لاتنقطع .

وحين أغلق نعيم باب المعبد ذلك الصباح ، كان الجرس على وشك ان يقرع فاقترب من باب الصف انتظاراً لصوت الجرس

كان يحب درس الديانة ، ويتعجل الدخول،ذلك بأن الكاهن الكهل كان يرقى به في دروسه الى آفاق يحبها ،وكان يشعر ، إما ازدادت ثقافته الدينية، وفهمه لبواطنها ، أنه أصبح أكثر غنى ؛ وكم حدثته نفسه أن يصبح كاهناً ، ولكن امه كانت تصرفه عن هذه الافكار صرفاً قاسياً وتحظر عليه طرقها من قريب أو بعيد .

دق الجرس ، فكان نعيم أول الداخلين ، وسرعان مااحتل مكانـــه في الصف الأول بينما كان بقية الرفقاء يتلكؤون في الدخول وهم على ثقة من طيب قلب هذا المدرس ، كانوا جميعاًيعرفون ان هذا الدرس إنما كان لتزجية الوقت وربما عمد بعضهم الى كتابة الوظائف أو وضع مخططات للنزهات أو المشاريع التي ينوون القيام بها بعد ظهر يوم الخميس

جلس المدرس الى الطاولة الكبيرة بعد أن صلى طويلاً ، وقال على عادته:

– افتحوا الفصل التاسع من انجيل متى حيث توقفنا في الدرس الماضي .

ووضع الطلاب اناجيلهم أمامهم مسايرة ، واستعدوا للشرود ، كان نعيم وحده يصغي .

وقرأ الكاهن :

– « واذا بانسان تقدم إليه وقال : يامعلم ، ماذا علي أن أعمل من الصلاح لأحرز الحياة الابدية ؟ قال له : لمَ تسألني عما هو صالح ، إنما الصالح واحد ، ولكن ان شئت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا . فقال له : أي الوصايا ؟ قال له المسيح : لاتقتل ،لاتزن ، لاتسرق ،لاتشهد بالزور ، اكرم أباك وأمك ، وأيضاً احبب قريبك حبك لنفسك . »

وراح الكاهن يشرح هذا النص ، وكان كلما سمع اصوات التلاميذ تعلو بعض الشيء ،نقر باصبعه على الطاولة فيعود الصمت الى حين ، ويشعر الطلاب أنهم إنما رفعوا أصواتهم اكثر مما ينبغي . وعاد الكاهن يشرح النص :

– ان الآية الاخيرة توضح لنا مفهوم العلاقات الانسانية ، وتشرح ماقبلها من الوصايا ، لقد ُطلب الى الانسان ان يحب قريبه كما يحب نفسه ، واذا فهمنا هذا فاننا نفهم في الوقت نفسه معنى كل وصية ، ونرى بوضوح أنها ترتبط بهذه الآية التي أعتقد أنها من أهم الآيات في الكتاب المقدس ، فالذي يحب قريبة لايقتله ، ولكي يقتله لابد أن يشعر نحوه بشعور آخر غير المحبة ، والذي يحمل في نفسه مثل هذا الشعور لايمكن أن يكون مؤمناً . وكذلك القول في في من يسرق قريبه : ان الذي يحب قريبه لايسرقه ولا يشهد عليه زوراً ، واذا كنا مطالبين بمحبة قريبنا فان أبانا وأمنا هما أقرب القريب إلينا .

ورفع نعيم يده يستأذن بالسؤال ، فوخزه زميله على عادته انْ لاحاجة للأسئلة : ولكنه لم يأبه به ومد اصبعه . كان الطلاب جميعاً يسخرون من رفيقهم نعيم الذي لايفتأ يسأل في كل درس ، وفي دروس الديانة على الأخص.

– نعم يابني !

– ما العلاقة بين قوله أحبب قريبك حبك لنفسك بالوصية : لاتزنِ ؟

– استرح سأجيبك عن هذا السؤال .

تنحنح المدرس قليلاً ثم قال :

– إن الذي يحب قريبه لايزني به، لأنه بهذا العمل يسرق منه أعز ما يملك فهو يجرح صميمه ويهين كرامته ؛ إن كرامة الانسان هي أثمن مايملك ، وفي الزنا تنتهك كرامة الانسان ؛ فهل يرتكب هذا الاثم إنسان يحب قريبه حبه لنفسه وهل يقبل الانسان أن يهين نفسه وينتهك كرامة ذاته ؟ هل ادركت العلاقة الآن ؟

وقال نعيم :

– نعم ، لقد أدركتها !

(٤)

٦ تموز ١٩٥٢

البحر هائج هذا اليوم ، وأمواجه تتصارع باستمرار فتخلف على سطحه آثاراً تبدو من بعيد ، كقطع من الصخر الأبيض . والطقس حار وعرق لزج يلتصق بالجسد من قمة الرأس حتى اخمص القدمين .

البحر هائج والامواج تتصارع ، وفي النظر إليها تسلية متجددة تنسي الناظر إليها الرتابة والملال . ونعيم جالس في المقهى الاخضر على شاطيء البحر وقد وضع كرسيه بحذاء الصخرة الكبيرة التي يتحطم عليها الزبد كل ثانية .

كان هذا يوم عطلته الاسبوعية ، فلم يجد أفضل من هذا المقهى يذيب فيه

وقته ، ينظر الى الطريق مرة والى البحرمرات ، مستجيباً لهذه الحركة الدائبة المتجمدة المتغيرة . وسرح بصره في المدى ، فرأى اللون الأزرق القاتم يصبغ سطح البحر ويمتزج بزرقة السماء الشفافة في الافق البعيد .

كان من عادته أن يزجي أوقات الفراغ من كل اسبوع في هـذا المقهى ، ورغم الفته لهذا المكان وكثرة تردده عليه فإنه مايزال يشعر فيه بالغربة ، ولم يستطع الى الآن أن يقيم علاقات بينه وبين رواد المقهى الدائمين .

وحانت منه التفاتة الى الجانب الخـاص بالعائلات فرأى عينين سوداين تحدقان فيه ، وسرعان ماتعرفهما ، ذلك بأن الزمن لم ينسه تجربتـه الاولى معها ، وشعر بهما تستدعيانه فترك مكانه وأمهما .

– يسرى ، كيف حالك ؟

– بخير وشوق ، وأنت ؟

ماذا عسى أن يحدثها عن نفسه ؟! أتراها قادرة على تفهـم ضيقة العميق وضياعه الكئيب ، وبحثه الضائع عن أشياء لايعرفها ، ورغبته في الفرار من من قيود لايدركها . وقال لها :

– ماأزال أحيا ، كما ترين ، وأنت ؟

وقبل أن يسمع منها جواباً كان قد رأى ابنها الصغير ، فلم يعد بحاجة الى مزيد من الاستفسار . لقد تزوجت وانجبت الطفل ، وهـي تعيش كما يعيش الناس جميعاً .

– لقد تزوجت منذ ثلاث سنوات !

– وهل أنت سعيدة ؟

وهزت رأسها وابتسمت ، ثم تمتمت :

ـ السعادة شيء نشعر به في فترات قليلة ومتقطعة ، أما بقية الاوقات ، فكما تعلم ...

وابتسم هو الآخر اذ استشهدت بعلمه في هذا الموضوع . حقاً انه ليعلم.. وسألته عن امه وعمله ، فأخبرها ان امه لاتزال تعيش من عملها ، الى جانب مساعدته الضئيلة لها ، وانها تنتظر نقله الى مدينته بين شهر وشهر .

وراحت تحدثه هي عن زواجها، وزوجها ، واقامتها في المدينة الساحلية، وغربتها الممضة ، ودخل زوجها المحدود ، وعنايته المزعجة بتربية الحمام والإنشغال به طول الوقت . ثم عاد هو يحدثها عن نفسه وكآبته وضجره ، لتعود فتحدثه من جديد عن نفسها وحياتها وبؤسها .

وهكذا فقد التقت كآبتان قاتمتان على شاطيء بحر قاتم ، وعلى هدير الأمواج ، راحت تتعرى كل كآبة ، كأنما لتلقي بنفسها في اغوار اليم . وما ان كان يصمت صوت احدهما حتى يشرع الآخر في سرد حديثه، واذا ما اراد ان يستريح قليلاً سارع الصوت الآخر ليتابع حديثه الذي قطعه وهكذا ، والواقع انهما ما كانا يتحدثان ، بل كان كل منهما يتحدث الى نفسه وعن نفسه ولكن على نحو متناوب . ولمّا انتصف النهار قامت مودعة ، ودعته الى المنزل ، فهناك كما قالت مجال أوسع للكلام عن الكآبة ومحاولة التغلب عليها.

ـ ولكن زوجك ؟

ـ لاتخشى شيئاً فأنت صديق الصبا ، وزوجي لن يكون في المنزل ، لأنه يغادره في الصباح ولا يعود إليه الا بعد الغروب .

ـ وابنك ؟ انني اتضايق من الأطفال .

ـ لاتقلق ، فسيكون نائماً !!

(٥)

٧ تموز ١٩٥٢

لمح من خلال خصاص النافذة عيني يسرى النهمتين ترقبانه ، ولم يكن بحاجة الى ان يقرع الباب ، اذ سرعان ماوجده يفتح وتقف يسرى مستترة وراء أحد مصراعيه . ودخل نعيم ؛ لم يكن مافي الغرفة يوحي بالثراء او الطمأنينة ، اثاث قديم لايدل انتقاؤه على ذوق مرهف أو أناقة متميزة. كان الوقت ظهراً ، وكانت الشمس حارة في الطريق الا أن المنزل كان معتماً ، والرطوبة فيه مستعذبة ، وتناهت الى سمع نعيم اصوات غامضة بعيدة ، هي اصوات الجارات يصرخن ويتشاتمن . والتفتت إليه يسرى تقول :

ـ أرأيت أن الجو هنا لايطاق. لقد دفع بي أهلي من عزلة منزلنا وهدوئه ، والالفة التي تسيطر على الاسرة ، الى هنا . ولست أدري سبب ذلك .

وأجابها بهدوء :

ـ أمن الضروري أن يكون لكل عمل سبب .

ثم أضاف :

ـ زوجك ؟

ـ لاتخف ، انه لن يأتي لموعد عودته غروب الشمس ، ساقدمك له على

أنك صديق لاسرتنا وجارنا وزميل الطفولة ، ألا يكفي كل هذا ؟ على كل، فانه لن يأتي ثق بذلك .

واختفت لحظة لتعود بعدها وقد حملت فنجانين من القهوة وعلبة السكاير .

وأقاما يستعيدان الذكريات ، وكلما مضت ثوان ازدادا تفاهما وتقاربا ، حتى تماست منها الكتفان ، وانفجر ضيقهما في قبلة طويلة حارة ، الا انها ما كانت الا لتزيد في ضرامها ، وتغلبا على الضيق الى حين وتغلبا على الزمن فلم يشعرا به . كان سمير قد عزم على أن تكون زيارته قصيرة لاتتجاوز ربع ساعة ، فاذا بها تمتد الى ساعة ونصف الساعة .

.. نهض نعيم يسوي ثيابه المضطربة المشوشة ، وودع يسرى . وسار في الطريق الضيقة الطويلة التي جاء منها . كانت أرض الشارع ملتهبة ، ولم يكن احد يسير في الطرقات لان الحر العنيف ادخل كل انسان الى جحره ،ولكنه مع ذلك شعر أن كل مافي الطريق ينظر اليه ، وان كل نافذة هي عين ترمقه شذراً ، وتغمزه مشيرة الى ما فعل .

وحين آوى في المساء الى فراشه امتنع النوم عليه ، وراح شبح مدرس الديانة يتراءى له من بعيد ، وترن في اذنه كلماته ..

واحس بصداع ينتابه وضيق يعض صدره ، وألحت عليه تساؤلات عديدة وشعر أنه أصبح قطباً في دوامة تدور وتدور ، ولاسبيل الى ايقافها ، وسال منه العرق بارداً . وشعر بالوحدة والغربة والفراغ والضيق . العالم كله شر ، وهو أيضاً جزء من العالم ، والشر لايغلب الشر ، فلا مفر من هـذه الحلقة . وشعر ان حلقات تضيق وتضيق على عنقه حتى ليكاد يختنق وان النور والضياء

يختفيان شيئاً فشيئاً ، حتى ليكادان يحتجبان في بحر من الظلمات واسع . وألحّ عليه النوم الحاحاً حاداً ، وشعر كأن في ضميره ابراً توخزه وخزاً يرتجف له جسده ، فيحرك يده قائلاً : لا ، وأقسم في اعمـــاقه انه لن يعود فيقع في المعصية من جديد !

(٦)

٨ تموز ١٩٥٢

وجد سمير نفسه يتقدم من مدير « الدائرة » ليطلب منه اذناً آخر بالتغيب . وفي هذه المرة لم يتطلب منه الوصول الى منزل يسرى وقتـاً أو جهداً ، ذلك بأنه عرف الطريق والدار بسرعة عجيبة !!

الفهرس

مطبعة المفيد الجديدة

دمشق - هاتف ١٥٦٨١

منشورات

الفن الحديث العالمي

دمشق . شارع بورسعيد رقم ١١٧

هاتف : ١٣١٤٧

ص.ب ٢٠١

النسخة ٢٠٠ ق